مبارك وساط

أَخْفِ الأجراس في الأعشاش

(مئةٌ مِن قصائدي)

أنطولوجيا

منشورات حِبر

شِعر

مبارك وساط

أَخْفِ الأجراس في الأعشاش

(100 قصيدة مختارة من شِعر م. وساط)

2021

منشورات جبر

أَخْفِ الأجراس في الأعشاش

مئة قصيدة مختارة

مبارك وساط

- طبعة رقمية -

﴿جميع الحقوق محفوظة﴾

منشورات حِبر

2021

هذا الكتاب:

عبارة عن أنطولوجيا شَخصيّة للشّاعر المغربيّ مبارك وساط. فهو يتضمّن مختارات شعريّة وافية من المجموعات التي صَدرتْ له حتّى الآن، مضافةً إليها قصائد من بين تلك التي لمْ ينشرها بعدُ في مجموعة (ما مجموعه مئة قصيدة).

مجموعات مبارك وساط الشعرية، حتّى يومنا هذا (31 غشت 2021)، هي التالية:

- على دَرَجِ المياه العميقة (طبعة أولى، دار توبقال، الدّار البيضاء، 1990 ـ طبعة ثانية: منشورات عكاظ، الرّباط، 2001 - طبعة ثالثة، رقمية: منشورات جِبر، 2020).

- محفوفاً بأرخبيلات... (طبعة أولى: منشورات عكاظ، الرّباط، 2001 - طبعة ثانية، رقمية: منشورات جِبر، 2020).

- راية الهواء (طبعة أولى: منشورات عكاظ، الرّباط، 2001 - طبعة ثانية، رقمية: منشورات جِبر، 2020).

- فراشة من هيدروجين (طبعة أولى: دار النهضة العربية-بيروت، 2008 - طبعة ثانية، رقميّة: منشورات جِبر، 2020).

- رَجُل يبتسم للعصافير (طبعة أولى: منشورات الجمل، 2011 - طبعة ثانية، رَقميّة: منشورات جِبر، 2020).

- عُيونٌ طالما سافرتْ (طبعة أولى: منشورات بيت الشّعر بالمغرب، 2017 - طبعة ثانية، رقميّة: منشورات جِبر، 2020).

وقد صدرت لمبارك وساط مجموعة شعرية بالفرنسية والعربية، تحت عنوان: Un éclair dans une forêt (بَرقٌ في غابة)، 2010، منشورات المنار، باريس.

كما أنّ مبارك وساط مترجِم. ومن ترجماته: شذرات من سِفْرِ تَكوينٍ مَنْسِيّ، لعبد اللطيف اللعبيّ (منشورات الموجة، 2004)، ناديا، لأندري بريتون (منشورات الجَمل، 2012)، التحوّل، لفرانتس كافكا (منشورات الجمل، 2014)،- الأبديّة تبحث عن ساعة يد، قصائد مختارة لأندري بريتون (منشورات الجمل، 2014)،- دمي الذي يرشو اليأس، مختارات من شعر محمد خير الدّين ونثره (منشورات جبر، طبعة رقميّة، 2020)،- ستُولَد شمس من أهدابك، مختارات من شعر جمال الدين بن شيخ (منشورات جِبر، طبعة رقميّة، 2020)...

المختارات:

-1-

قصائد من مجموعة:

علــى دَرَج الميـــاه العمــيقـة

خلف نافذتي...

خلف نافذتي المرصَّعة بالبروق
تقصفُ أجنحةُ الفجر
نُجيماتٍ وليدة

في الحُقول المُنهَكة
حيثُ تتناجى بُقَعُ دَمٍ وأزْهار
يرسم بحَّارٌ مسلوخ
أشرعةً ومجاذيفَ
على صفحة جلده المتهدِّل
ويُحَدِّق عرَّاف بعينيه الزّجاجيتين
في غُضون إلهٍ مُحنَّط
بينما يتدلَّى جنديٌّ باسماً
من المشنقة

أولئك أَسْلافي

وما عادوا يتعرَّفون عليَّ

لقد قَصُرَتْ قامتي حقّاً

بسبب الصّباحات الشّاحبة

التي تضغط على كاهِلِي

عند اليقظة

لستُ متوجِّساً من هذا

فما دام قلبُ المرآة ينبض

ثمَّة أملٌ كبير

في انبعاث الشِّفاه من رمادها

إذَّاكَ ستينَع القبل

وتستمتع عظام الموتى

بغناء النَّمل...

أتنصَّت لأشْجان موجةٍ يتيمة

بعد قليل أخرج للتّجوال

سيكون لركبتيَّ شكلُ شعلة

أنا لا يُرعبني لُعابُ الفوانيس

ولا سُعال الذِّئاب

خلف الواجهات الأنيقة

لكنْ أَخْبِروني

لماذا يتدثَّر المرضَى بمعزُوفة الرِّيح

وأين هي سُرَّة الصَّحراء

الحنجرة تنتظر لحظة نُضوج الصَّرخة

الجرادة تتأوَّه على قِمّة المدخنة

هنالك مفاجآت كثيرة في جنبات المدينة:

لقد شُرِع في صلب النّادل أمام المقهى

لقد تساقط ريشُ سنونو

على كتفيَّ الحالمتين

أنا رأيت ممرِّضين عُراة

يُجلَدون داخل كهف

ومساءً يُوضَع في تابوتٍ من غبار

وزوجين سعيدين حقّاً

لهما ذرِّية من فلّين

وها أنت يا ذكرياتي

تتزحلقين

على ثلوجٍ من حَرير

رَفيف أجنحة يُضرم حقولاً

حين تندلعُ حُمَّى الأخْيِلة في ثُقوب الليل، أنصِتْ للهسيس المنبعث من أعشاب عقلك الذي ينتظر إشارة المُرور إلى ضفَّةٍ مأهولةٍ بالدُّوار. تسـمع هينمـةً في مـرآة تعكس ظلالاً؟ إنَّه المجنون يُقلِّد عظاءة روحه. لسانُه فلاةٌ يـرقص فيهـا الحجـر. شـراييِنُهُ تَجْأر بالشَّتائم والهديل. يُفكِّر أنَّه نبتة قُرَّاص، أنَّه غيمة...

حين تَعبرُ فراشاتُ السَّهَر أمام عينيـكَ اللـتين تتجاذبـان لُغـزاً قادمـاً مِن جُـزُر أَحلامك، تحسَّسْ صَدْرك الذي تَرتعُ فيه فُلول الكلمات. رَفيفُ أجنحةٍ يُضرم حقـولاً، في مكانٍ ما من هذه المَتاهة، والمجنونُ يَتمدَّد تحت شمسٍ من صُنع أسلافه...

حين تُومض في قلبك موسيقى البراري المُوحِشة، ستَقتطفُ فاكهةَ نومـه مِنْ جَنـائنَ مُضاءَةٍ بِالهذيان.

عصــافيرُ سكْرى

ثمّة حانةٌ أُنادم فيها أشكالاً هُلاميَّـة، تَرقبنـا عيـونٌ لمـوتَى، وهي لا تـزال تنبِض، منسيَّةً في الكؤوس وعلى المناضد. زفيرُ السَّاعات ينكأُ جـراحَ حكايـات غامضـة، بينما تبحث قطرةُ خمر وحيدة عن معنىً للحياة داخل حنجرة سـكّير. الجنـود الـذين حاربوا في السَّراديب وعلى أرصفة المقاهي يُصَوِّبون بنادقَهم إلى قلب تمثالٍ يترنَّح مُعربداً. والطّفلةُ التي تَهْجع منذ لحظات، تحلم بعصافير سكرى تَنقرُ لسانَها الـورديّ. على عتبة الباب، يقف شحَّاذٌ باسماً، فيما تتسكّع روحُه بين صناديق القمامـة، بحثـاً عن قنانٍ فارغة. "أنتَ شجرة مأفونة، أنتَ غيمةٌ مُخدّرةُ الحواسّ، ذَرّة رَمل تَبْكي في أعماق المُحيط..."، يقول النّادل المقنَّع للكهل الذي يعمل ساعيَ بريـد بين النّجـوم. لكنّ هذا الأخير كان يغطسُ عمودَه الفقريّ في دَوْرَق من نبيذ بابل، ويُفكِّر في عذاب البشرية الذي يتمرأى في شاشة صمته العنيد.

أُعيدُ تكوين المشهد، فأرى وجهي مثقلاً بكلمات ذابلة. كلماتٍ، أنفاسـي ستسـحبُها خلفها إلى حيث ترتعش عظامُ البحر... لحظات وأمضي من شارع إلى شارعٍ يُطارد خيولاً غريبة، وهي تهرع نحو بَرارٍ مُدَثَّرة بِغَسق الكحول.

مــــُراودة

افتحي فمك قليلاً

وَلْتُوقِظْ أنفاسكِ عينيّ

من سُباتٍ أمنحه لطائر

ها أنذا أفتح ذراعيّ الآن

لأمنحَكِ نبْضَ الماء الحيّ

ظلُّكِ يجوب ضفافاً بعيدة

وظلّي الذي يتبعه

سقط مُهشَّماً على إفريز الصَّباح

لكنَّ نيراني دائماً تدعوك

عليكِ بتلمُّس الجَمرة.

على رصيف مقهى

لا أحدَ من بينهمْ كان في حاجة إلى الألم.

أهازيجُ غامضة تتردّد في حناياهم، فيما تهبُّ أنفـاس متقطّعـة من ناحيـة التِّلال. عصافيرُ شاردة تسقط بين الفينـة والأخـرى في عبِّ المـرأة ذات الوجـه المُطـرَّز بالثُّقوب. والغيومِ الورديَّة الثلاث، والتي هي قوارب مُتْرَعة بِنُخاع الكواكب، يدفعها النَّسيم نحوَ شطآنٍ آهلةٍ بالأجنّة. الجنديُّ الوافد عـبر مفـاوز موحشــة، يُطـارد في المرآة كلباً أجْرب. أحدهم يحاول أن يقول شيئاً من دون أن يحرِّك شفتيه. أحــدهم يتحسَّسُ عظاماً تتفتَّت في جيبه. صبيٌّ مجنَّح يتوقَّف قليلا عند كلّ منضدة خلفها رجل جريح. ثم يُفرد أصـابعه المخمليّـة قبـل أن يختفي في الضَّـباب الكـثيف. والأعمى، النّائي عن الآخرين، يَغوص في مياه وحشته، أهدابُه مسبلة على صرخات وبروق...

لا أحد من بينهم كان في حاجة إلى الألم.

تفاصيـــل الدَّهشـــة

الأنوارُ شاحبةٌ على سيقان الليلك

الخطى مُحطَّمة على بلاط الشوارع

الأمواج ساكنةٌ في جنبات الحدائق

لا شيء تغيَّر

بعد أن هجرتِ هذه النَّافذة

حيثُ يضحكُ العصفور

هذه الغرفة حيثُ نظرَتُك

ورنينُ أساورك

شالُك، وآهاتُك التي من بنفسَج

ما تزالُ منثورةً على الشّراشف

المكتظّة بأنفاسِك

وفوقَ المنضدة المبقّعة بالحِبر

حيث يُقهقه بوقاحة

تمثال بوذا المترهّل

للأسفِ لم أستطع أنْ أبدوَ يائساً

مثل نَشيدٍ ناضب مثل جدولٍ هرم

لأنَّ تفاصيلَ الدّهشة تمَّتْ خارج حياتي

لأنَّ أنْفاسي تتلعثمُ في العراء

فيما الثّلج يتساقط من سَقف الغرفة

ويلعب في حضني كطفل

لا شيء تغيّر

هيْنَمة الوزّال تَسري في المروج البعيدة

والسَّماء تنثُّ رذاذ الهذيان

وأنت تتخلَّصين من دمك وتجرين

بين أشجار الصّنوبر المريضة

وعلى الأرصفة التي تَغصّ

بعذاب الموسيقى.

كان قوسُ قزح يتزحلقُ على كَشْح هَضيم

والزَّبَدُ يكرّر أحلام المحيط

كانت أحلامكِ تتبعك

وأنت تتلذَّذين بالهمس وبالكلام

وفي منتصف العبارة تختفين

تاركةً طيفَك في المرآة

تاركةً همومك الصَّغيرة على عتبة الباب

وجهَك في بدايات النّهار

وثوانيَك الزَّرقاء

في قلب السّاعة الذهبي.

لا شيء تغيَّر

رعشتُكِ تنسرب في خروم الدَّنتيلا

خوفُك ينسدل على جبيني

وأنا أبتكرُ سيرةً لوردٍ عابر

قبل أن أضعَ يديّ على مفتاح العلاقة

ورأسي خارج رواقة البهجة

قبل أن أَغمس عينيّ في لعابِ الوسادة

المرصَّعة بنومك وعطرك

وأنصتَ لطحالب المستنقعات

وهي تنمو بين ضلوعي

في هذه الغرفة الكئيبة كابتسامة القتيل

حيث الوقت دائماً

منتصفُ الليل

حرائق

كَمْ جَهَدنا لنرسمَ البسماتِ على شفاهنا الكئيبة، وحاولنا أن نُنصتَ للضَّجة الخافتة في قعر الجرار، لأجنحةٍ تَنتفضُ في كوابيسنا، وكثيراً ما جلسنا بين الخرائب، في الأماسي المنخورة بالحكايات الطّائشة، عيونُنا تترصَّد خُطى السَّاعات، وفي أفواهنا تَنمو أغصان الليل المتقيّحة. كَم شُدِهْنا ونحن نسمع المياهَ تُدمدم، ونَرى أقماراً معتوهة تسقط في أُحبولة الألم، والعانسَ التي تنسج الرَّايات، والرُّعاةَ إذْ ينطفئُون كشموعٍ في البرد. كم ذَرفنا من دموعنا الخضراء، ونحن نسمع تلك الطِّفلة المشنوقة بحبال الأفق تُكرِّر كلَّ ليلة: "جميل من النُّجوم أنْ تَكشف عن أسنانها الذَّهبية لِعُيون المسهَّدين. جميلٌ من الثّلوج أنْ تَقْضيَ وقتها في أكفانِ صَمتها. جميلٌ من الفَلوات أن تُلقِم أثداءها للمرضى اللامرئيين...."

أحياناً، ننسى كلَّ هذا. نجلب الحشائش وننثرُها على الأرائك. بِإبَر الضَّوء نَخِزُ جِلد الغسق. نَضعُ الكؤوس في الزّوايا. نُعَلِّق الكراسيّ إلى السَّقف. نُوَقِّع خُطانا على شطحاتِ نهرٍ مجنون. ثمَّ نَستكين، في انْتظار الحرائق الموعودة عند الفجر.

خيمةُ الغبــار

من جديد، بدأتِ القوارب الكاسرة تخيط بِمِسلّاتِها أفواهَ الأنهــار، بينمــا الخريــف ينسج علامات استفهام على وجوه العابرين! نبــوءاتٌ وخِيمــة أستشــفُّها في عيــني يمامةٍ تُحتضر، وأخبارٌ غامضة تبثُّها إذاعــة الزَّبــد عن مصــيري الأكــثر غموضــاً. أحياناً، أُقيم مع سَدنة العشب في ظلّ أساطيرَ سامقة، بينما تتوغَّل أنفاسي في فَجوة الجبل العميقة، أو أمضي إلى كهفٍ بعيد، أرى فيه العلماءَ المُقْعَدين يَفكّون ألغازَ سَيْر الحقول. كنتُ، أيضاً، أُجالسُ صديقي الذي يشتغل بمنجم الدُّموع السَّوداء، لنستغربَ قليلاً من طُفولة النَّيازك وبُكاء الحجر اليتيم. لكنَّ القنَّاصين الدُّهاة كمنُــوا لــه ذات مساءٍ في خَيمة الغبار. ومُذَّاكَ، صرتُ أتطلَّع إلى كلِّ هَيْكلٍ عَظمِيّ يُدنــدن في حانــة، وكلِّ ميِّتٍ يُحمحم تحت نافذتي، إلى أن نسيتُ ملامحه كلِّيــةً. بقيتْ دمــاءُ السَّــنَاجب تَزورني. وساعي بريد المَرارة، الذي كــان يحمــلُ لي رســائلَ على هيئــة سلاســل، وبطاقاتِ بريد تسعُلُ فيها الغربان... وطلع حرّاثو الأمواج الخِصــبة، من أكــواخهم في عمق المحيط، ليقوموا بمسيرة احتجاج من ساحة الألم العظيم حتى مقرِّ إقامة العَظْم المتلألئ. جاء الرُّعاة العميان أيضاً. وحُروف الجرّ المعذّبة. جاء حرّاس قوس قزح، وغلايينُ سُودٌ كأنها من شُيوخُ بني حام... ومضتِ الحشــود على ضِــفَّة النّــار،

ضاربةً في أرض الوحشة الزَّرقاء... في ذلك الوقت، كانت الأزقّـة الخلفيَّـة تتلـوّى على أعناق الذِّئاب، والمطرُ، مُشعَّثاً، يتقافز على إيقاع قَرْعِ الطُّبول.

أمــاكــن

في شارعٍ جانبيّ

وجهٌ أليف

يتكاثر في انتظاري

في ضاحية قريبة

قبيلةٌ تُقيم طقوسَ نَدمها

في ميدان المعركة

سقط ضحايا كثيرون

تحت حوافر الأصيل

في ذاكرتي

مدنٌ تهمي عليها أمطار وأحزان

في غابة ما

امرأة تقبل ذئباً كسيحاً

على رصيف مقهى

قَمرٌ ينزف

في سُرَّة ميت

على عتبة غابة

هياكلُ عظميَّة تضحك للنُّجوم

في كوخ مهجور

أنام متستِّراً على صيحتي.

شُـــرفـــة

رنينُ عضلات الليل المعدنيّة، ضجيجُ النّهارات المُتقيِّحة، رصاصاتُ الليل والنّهار الطائشة، الرَّماد: ذاك ما تعرفه أيضا أفواهُنا. من هـذه النُّقطـة انطلقتُ. وهـا هي تتدحرج الآن نحو النُّقطة المجاورة، حيث جلس رجل بهيئة شحّاذ. أطلـق وإبلاً من الشَّتائم، قاصداً لا أحدَ، ربَّما. شرب نشيداً من الدُّموع في أقداحٍ مَكسورة. بكى تحت شُرفةٍ تَأوي إليها امرأةٌ كانت حبيبتي. رَقَص على الجَمر، وعلى نغمات النّـاي. وهي من شرفتها، ترعى قافلة التنهُّدات التي تحُجّ إلى مَهبلها، وتمنحني عند اليقظة كـأسَ نبيذ وعشب الأعماق... إنها تكرّر: "كتيبةُ جِراح تُدندن في ساحات قلبي."...

"على الشفاهِ أيضـاً، تتفتَّح وُرود الـدَّم في الفجـر..."، تَهْـذي جُمجمـة في إحـدى الحانات، فيما تُصْدر المومياءُ أوامرَ للقناني الفارغـة بالتَّسـكُّع في المزابـل. حتّى إشعار آخر، يبقى كلُّ شيء هادئاً.

أَصْفِقُ نوافذ النّوم

حدثَ ذلك بِمحض الصُّدفة

أمام الجُمجمة المرسومة على جِلد الليل الأبرص

ينسجُ الموتُ في حدقتيها حبكتَه البارعة

من ألْيافٍ، من بقايا صباحات ذاوية،

أمام قطرةِ الخمر المتشبثة بحافة الكأس

بيأسِ حيوانٍ فقد ذاكرته في معركة غامضة

بين الحُلم واليقظة،

أمام عينيَّ اللتين نَمتْ فيهما

أعشابُ الكوارث الأليفة

وأجنحةٌ سوداء

ترفّ كلَّما بدأتِ المصابيح في الهديل

باسمي حين أَصفِق نوافذَ النَّوم

وأمشي على شفرة الواقع نحو اللهيب

كانت الأقمار الواجفة

تتسلَّل من فتوق الأساطير

ودمُ الأشجار يُدثِّر ظلالَ المهاجرين

كانت الثُّلوج، في رئتيّ، سادرةً

في أنينِها

تُفتّتها أحزانُها

كالعادةِ التي أسدلَتِ السَّتائر

على مشهدٍ أبدو فيه بمحض الصُّدفة

مُغْرقاً ضَجري في جدول شتائم

أحفظُها منذ الولادة

تميمةً أُعلِّقها على صدر يمامة

أو امرأةٍ في آخر الليل.

حدثَ هذا بمحضر امرأة آخر الليل

التي تركت شيئاً من روحها

في فمي المُثقَل بصرخة

تنطلق دائماً في اللحظة المناسبة

لِتُحطِّم الجدار الذي تحتمي خَلْفَه

الرَّايات من الصّفعات

والرُّضَّع من نُباح الساعات المريضة:

بمحض الصُّدفة سقطتْ دموع الغراب

سقطت الأغصان الحمقاء في شَرَك الريح
ارتجفتْ قامة الفجر من شدَّة الخوف
لم يعد بابُ الغرفة يؤدِّي إلى الخارج
صار لا ينفتح إلا على النَّعيب
سقطت طيورٌ نادرة في عَباءة البحر
سقطتْ خُطاي تحت وطأة الموسيقى
سقطت عيناي في شحوب
الياسمين...
« كان متأجِّجاً، ذلك الهيكل العظمي »،
قالت النُّسور
ومن جِراحي تطايرتْ
فراشات زرقاء...
إذَّاكَ بدأ جنودٌ من زَبد
يُطلقون النَّار
على قوافل الأيَّام.

بدأتْ هذه الثُّلوج تصدأ...

أقفُ تحت نافذةٍ تتردَّد خلفها شكاوَى عجـزة ومتسـوِّلين يتقاسـمون خـبز الملاحم القديمة. أقفُ تحت مطرٍ يقضم نهد عـذراء تـركض في مفـازة العـذاب، خلال هـذا المساء الذي يرْفُل في فساتينَ من عوسج. طواحينُه تُفتِّت عظام الملائكة. وأنا الذي استهللتُ هذا الإعصار الجميل، لا أرى على شاشته إلا أقدامَ المـوتى، مغروسـةً في صناديق القمامة، تتشمّمها الذئاب... بدأتْ هذه الثلوج أيضاً تصدأ أمام عينيَّ اللتين كانتا يمامتين سجينتين، وجلدهُما أقزامٌ كانوا لا يغادرون بطونَ أمّهـاتهم إلا خلال أعياد المجوس. نيرانُهمْ تتثـاءب على وسـادتِي كـلَّ صـباح. دمـوعهم تَصـهل في محجريّ، فيما أصنع حماقات مشعّة من رماد الأيّام، وأترصّد أبواباً تُهـرول بأقـدام آدميَّة، منها سأدلفُ إلى مدن الماضي، مُنقسماً في جسوم كثيرة. قد يكون أحدها هذا الشحّاذ الذي يغفو في محارة بحجم خرائب عمره الطّويل. ومثلما يندلع شـبقُ النـار في قشّ صيف جميل، سيأخذني الحنين إلى ساحات مكتظّة بالمهالك، حيث عُميـانٌ يَسْحَلون وجوهَهم المنطفئة، إلى مرافئَ تَرسو فيها سفن مُحمَّلة بقلوب الأرامـل، إلى سريري الذي أمضي إليه عبرَ جسور سـبعة، تتمـدّد على كـلٍّ منهـا امـرأةٌ تفتح لي ذراعين من غبار... وحين أصل إلى نقطة انطلاقي، أَضـيعُ، نشيداً في فَم العاصفة.

- 2 -

قصائد من مجموعة:

محفوفاً بأرخبيلات...

رَحـــيـل

حينَ سالتْ على جبيني

دماءُ الغَسق

اعترتْنِي رعشةُ اللحظة العَمْياء

انسحبتْ يدايَ

مِنْ طُفولة الذَّهب

وبدأ وجهي يُسافر بلا كَلل

نحو مهابِّ الألم.

مُهمَّة

اِنْتخبتنِي الليالي

لأشتارَ عسل الكواكب

المُتدلِّية

فوق رؤوس

الغواني

لهذا "لا أذُوق النوم إلا غرارا".

أَبَـديَّـة

وكأنَّها الأبديَّةُ

محمولةً بين مخالب نَسر:

كلُّ هذا البياض

المُدمَّى

وكأنِّي الامتدادُ الحيّ

لزوبعةٍ

غامضةِ النَّوايا

أَأَتلفَّعُ بِحرير الشَّمس

وأُصيخُ السَّمع لهذا النَّدى الذي يَمُوء

في أحداق

الخُزامى

أَأَحْدُو النسيم

إلى مسقط رأسه

خلال هذا النَّهار الأكثر خضرةً

من كارثة

أمْ أبقى في هذه الغرفة النَّظيفة

إلّا من دماء الأحد؟

مَــسرَّة

جاءها مخموراً

لِيَسرد على عينيها

نُعَاس اليمامة التي تَحيا

في صُندوق من طلّ

جاءها ولم يصدِّق

أنّه أفلت من أشْراك الرَّمل

وكمائنِ المصادفات

وأنَّ خيول الشَّوق المُجنَّحة

التي حملتْ على صهواتها قرىً عديدة

إلى مجرّات بعيدة

هي التي أنقذتْه

من فحيح المسافات

جاءها مخموراً

في عينيه

هلوسات السّهر والترحال...

ومعها أقام تحت مظلَّة الهديل

محفوفاً بأرخبيلات

ولم يحزنْ أبداً

لدى سماعِه الأغصانَ الجريحة

تلتفُّ على قلبه العاشق

هو الذي جاءها

مَخْموراً

بــراءة

الرَّجل الذي قضى ليالي طويلة
مُوغِلاً في شُحوب الحديقة
لم يَسرِقْ نياشينَ الخُزامى
وليس من جدَع أنف الهواء

لم طاردوه إذن؟

إنه يتخفَّى الآن في مغارة
يَحرسها هتاف النَّمل
لا يغادرها إلا مُكرهاً
إلى مفاوز
يُسدل عليها الأموات
أكفاناً راعشة

لكنْ لا خوف عليه
حين يَجوع
يستطيع أن يجلس

إلى خِوان النسيم

وإذا تعقَّبته العقبان

يُمكنه أن يمتزج بالزَّبد

لا خوف عليه

لهُ خيمة

يستريح فيها حواريُّو الرّيح

حين يتعبون

حــاشيـــة

أنفاسُ الصَّيف تتمتْرس خلف ضحكة الجبل

زَغبُ الضّوء يتناثر، حُمَّى من الألق

قريباً من الهاوية الزرقاء

ثمَّة بَحرٌ في سَمْت مَلك

حوله حاشيةٌ من الغَرقى

وجنودٌ يَخبُّون على الثُّلوج

يَخُوضون حرباً صغيرة

ضِدّ فيلقٍ من النَّوايا:

بِلا مبالاة، تَعبر الريح فوق المشهد.

للشّتاء أسماؤه...

للشّتاء أسماؤه السّرّية

في ردني معطفه

تتخفَّى العنادل

الهاربةُ من دموع العدالة

وله أيضاً بيارقُه المرصعة

بهَينمَات قوس قزح يتيم

حين تُطلُّ شمسه العابثة

وَسْطَ سماءٍ

تُقامر مع أسلافنا

بعظام النّوارس وفضَّة الغيوم

ويُلْقي ضووُها خطبته التي

يسيل منها عرقُ الأبالسة

على آذان

نهرٍ لنا

نَنفضُ عنَّا نَقْع الكآبة

نتناسى الصَّباحات السّجينة

في قناني المروج

وتنتظر...

تنتظر أن تعودي إلى غرفنا

أنتِ يا ملائكةً

مِن مياه.

ذِكْر مــا جرى

كانتْ مناقيرُ الدَّقائق

تنقرُ رِدف امرأة بدينة

كَلبُها الصَّغير الْتَفت

وأثنى على الهواء الطَّلْق:

عينُ النهار كشَّرتْ!

هـــامــشٌ لصهـــيل فنــار

هُنا، تَحت أهدابِكِ أيَّتها الرِّيح، وأنت تُفكِّــكين دَواليبَ الظّهيرة، وتنثُرين المفاتيحَ على صَدْر الميِّت، حيث ينضُجُ الصَّمت، ثم يَنسَلُّ ثَخيناً إلى خياشيمنا،

تحت أهدابك، تخلَّصنا من خُطانا الفائضة عما تُحبِّذُه الطُّرقات، وَمِن الصَّدأ العالقِ بسجلَّات أنفاسنا. وَأَدْنا النَّغمات التي استخرجنا من عويل العربات، وتشمَّلْنا بنجيع الوقت. وإنْ لم نحضُرْ دفْن آخر نهار قتيل، فإنَّ أفواهنا تركتْ هامشاً لصهيل فَنَــارٍ يُضيءُ طريقَ المراثي.لم نكن قط أدْعياءَ إزاءَ مشاعر العنكبوت. نحصدُ ســأم القمح، وبِكوابيسِ الينبوع نغتسل. وليس بيننا من أوقع الضَّغينة في قلب الصَّبيحَة التي مزَّقتْ نسيجَ سُهادِنا، نحنُ المُقْلِعِينَ عن معــاقرة وســواس الخيــول! وإذا السَّــنابك تجتثُّ صفير الحدائق. واللقالق تَقضم لحم الدّقائق. وأهدابُنا تقـذف شرارَ اللبلاب. يَــا مــا صادقْنا السُّهُول المتأنقة. يا ما تأوَّد قدُّ الغواية في أروقتنا، بين مرايانا وخطايانا. وحتَّى حين بدأت فراشات نزقة تُربِّي في آذاننا عواصفَ وليدة، نحن لم نيأس.

نرى إلى أرضِنا الحيزبون، المُعلَّقة من شَعر عانتها بأســلاك لا مرئيَّــة. نتعلَّم منهــا الصّبر!

رقصـــة

أَعْدَتني هذه الورقة بِحمَّاها

لا سبيلَ إلى الشِّفاء

من طقس هذه الأسنان

أَعْزَلُ أنا

حين مرَّ شهاب بنافذتي

لم يتركْ لي غير فُتاتٍ من نصائحه

ولأمةٍ كانت لأسلافه

سأتدرّع بها ضِدّ كماة الشتاء

وأُوغِل في العزف

على كمنجات

الغواية...

لكنْ ما الَّذي سأفعله الآن

وقد بدأ هيكلي العظميّ

يرقص بجانبي

على إيقاع القُشَعريرة؟

أُمسيـــة

طُول الوقت كان الموسيقيّ
يَعزف بحركاتٍ تُشبه
تمارينَ المطر
والبهلوانُ يترنَّح في الأعلى...
لم يكن أحدٌ ليرفع عقيرته
لم تكن كفٌّ لتوقظَ الأشجار
المُسرنِمة في المرايا
على جُثَتنا الطَّافية فوق لعابها
تناثرتْ بِدافع الشَّفقة
وُرود الشَّفق
وبدا الحُضور سَاهمين
فهم، لا شك، يُفكِّرون
في عذاب المذنَّبات، التي،
بعناية، تحرسهم...
أنا، أيضا، فاجأتني
لحظةَ شحوبِ الباب

كلُّ تلك الطيور التي

بدأتْ تهزج

في مُنعرجَات مصائرنا!

كيْ لا ننــسى

يَحْدث

إذا ابْتعد الأعمى

مخفوراً بهسيس الظلام

أن تنبثق من بؤبؤيه

عصافيرُ

بَرَّاقة

وأحياناً

إذْ تَنْفتِح عيون الطَّلّ

تتقمَّص أزهارٌ

شفاهَ

الغواني

ومرَّةً

رأينا عرافّين

يشْمُلون عيون النّهار

وبغامض التَّعزيم

يَصنعُون من الرَّمادِ
ظلاماً

ومرّةً
فكَّرنا
في المصير الأسود
للطَّحالب الحمْقاء
فَنما قلقٌّ كثيف
بأذقان أقزامٍ
يستعبدون المستنقعات
وأجراسَ أرواحنا

لكنْ
يتوجَّب نقشُ هذا
على آماقِ قوس قزح
كي لا ننسى
أنَّه يحدث
إذا ابتعد الأعمى...

كان صباحٌ...

كان صباحٌ يَجوب الشوارع
مُتملّياً غُرفاً تَرقص في الضباب
وكنتُ هائماً أيضاً على
هَمهمة الحصى
حَواليَّ نَيازكُ فقدتْ رُشدها
إِثْرَ صَدمةٍ ما والعُشب الميّتُ
يُوجِّه سأمَه عالياً إلى فمي
والحكايةُ التي تَدِبُّ على جبيني
لم تَكنْ لترتاحَ في ظِلّ
رِياحٍ هبّتْ لتخلعَ
عن الأشجار شفاهَها
وكان الصَّباح الصّغير يمشي
رازحاً تحت صراخ
أسنانَه وأنا جنبه
أتنصّت للموسيقى الغريبة
التي تتولَّد
مِن قَلق العابرين

طويلاً عِشتُ كَما

طويلاً عِشتُ كَما
لَو كُنت نَهراً لا يكفُّ عن
الهدير
نهراً لا يُبالي
إنْ عاشَ أو انتحر
كنتُ أقرعُ أجراس الفوضى
في الطّرقات
وأَجلسُ إلى موائد الدّوار
في مقاهٍ
تَؤمُّها البُروق...
ثُمَّ وجدتُني، ذاتَ فجر
جاءَ مُبرقَشاً بأنينه
أرْعى سِرب كوابيسَ وَرْسَاء
في شُهوب السُّهاد
وكنتُ مِن بين الفرسان

الذين نادموا ظِلالهم

على قليلٍ من الوسواس...

أمسِ مساءً

كانتْ سُحب مُشاكسة

تكسو رأسي

بِسُعال الأبالسة

وبعد أن تسلَّلتُ خِلسةً

من بين أسنان الطَّقس

مضيتُ لِأَتيه

في الأزقّة الخلفيّة

للحياة

أقبــل الفجـــر

أخيراً،

أقبل الفجرُ جريحاً، وقد حرَّرَ أجنحتَه من أصفاد الخرافة. وقتها سالَ الفَـرَح قانياً من أنوفنا التي ما عادت تتعرَّفُ علينا.

لسنا وحدنا الحيارى!

شَكوى

هذه السّماء ملتاثة
إنها ما تنفكّ تَلُوك
ثِمار كآبتَها
قاذفةً بالنوى
التي هي جماجمُنا المعدنيّة
في بُحيرات النّدم.

أَلَق

الطّفلة الغريبة التي كانتْ تحكي لنا

عن رفقتها لقمر وديع ألثغ

والتي مضتِ البارحة لتنامَ جنْب المدفأة

قائلةً إنَّ عناكبَ مدربَّة

تنسج من نُخاع الزَّمن

خُمُرا لإناث الزواحف

ما زالتْ بعدُ لم تستيقظ...

ذلك أنّها ليست في مكانها

فهي تتمدّد على شاطئ بعيد...

نمضي إليه لنرى:

ثمَّة قواربُ مُحملَّة بأمواجٍ حوامل

والطَّبيب المسؤول عن صحَّة الزبد

ما إنْ رآنا

حتَّى سارع إلى التخفِّي

تحت كثافة ظِلِّه...

وهي، هنالك، مشدودةُ الأصابع

على ورود الغيب النَّدِيَّة

وألسنةُ الموت تلعَق أجفانها...

ما يلتمع على جسدها

ليس برْقاً في حِداد

إنَّها الدُّموع السَّوداءُ لِريح

تأكل الطَّيْر

من رأسِها...

مَصيـــــــر

تلك العذراء البهيَّة

وَدُموعُها من حليب

كفَّاها مفتوحتان

لِضحك الأعشاب

وفي كلِّ صباح تلتقطُ مِزَق الأحلام

المتساقطة من أجفان الكواكب

وَتُخفيها في عيوننا

كلَّ مساء تكدّ، ونحن لا نزعجها

إنَّها تضفرُ أكاليلَ غاز

لِلَّذين من بيننا، خلسةً،

سيُصْلبون.

بَدأَ المطرُ يفاجئني

على محفَّة الهذيان

تتمدَّد شقيقة الزَّبد

مُذْ صُعِقتُ ببروق جسدها

مُذ عشقتُ حدائقَها المعلَّقة

بضفائرها

بدأ المطر يُفاجئني كلَّما غفوت

لذا فأحلامي دَوْماً

حافلةٌ بأقواسِ قُزَح.

- 3 -

قصائد من مجموعة

رايـــــة الــــــهَواء

العين

الكأسُ المُترَعة بمِلْح اللّيل
تجرّعْناها
أَسْرَعَ قليلاً من الحُمّى

ثُمَّ عَيْنُكِ التي تذْرو
باروداً كثيفاً
على ألوانٍ كانتْ لِعيَـْنِي

ثمّة أقمارٌ
في فضاءِ بيتنا
تنبضُ وتضخّ دمًا
في شرايين الهواء

- «إنهنَّ كنَّ قلوباً ـ تقولين ـ
أيّامَ كانتْ سنابلُ الحُبّ
تُصيخُ لهذيان الشَّمس

وكانت تلك الشّجرة الجميلة

تطوف ببراري نومنا

بحثاً عن يمامة

كانتْ قدْ تَحَوّلتْ فجأة

إلى غمامة»

- «والآن،

إذْ سنرحل، فَلْتعلمِي

أنّ عيونَ المَها

هنَّ اللّواتي سيُسْعفننا

على الجِسر

الجسر الذي سنعبُرُه

أعلى قليلاً

من الحمَّى»

- «لا تَنْسَ

ما دُمنا سنرحل

أن تأخذَ السَّكاكين الذَّهَب

فثمّة في طريقنا

جبلٌ صامت

يَكنزُ أنفاسَ العصافير

ويرمي المُدْلِجين العُزّل

بِأَعْين

الجرائم»

- «أُنْظُري

إنها البَبَّغاوات

المُنْبَجسة من خُطاك

تُؤلّف منظومةً من خَرَز

عن صعوبات الكلام»

الرّقْصُ أسهلُ حقّاً

لكنّ قلبَ الموسيقَى

مُثْقلٌ بِمِلح الليل

والعازف؟

جاء أطبَّاءُ

مختصّون في العين

والكعب والحنجرة

قيّدُوهُ شنقُوهُ

بحبالٍ

صَوْتِيّة

قدماه تتدلّيانِ تتدلّيانْ

تنقبضانِ تنبسطانْ

إنهما تُدَوْزِنَانْ

أوتارَ

ريح

الصَّـــبَا!

أمــام بـــاب الحُــبّ

أرضٌ وهّاجة

بِعذابات الحَجر، تَرِفُّ عليها

أجنحةٌ بيضاء

خلال أصائلَ بيضاء

من هنالك جِئْت، ولمْ

يَكُنْ في طريقي من مُفاجآت

سوى أنَّ بِضع شُجيرات

كانتْ، أحياناً، من فَرْط الدَّهْشة

تتحوَّل إلى كمنجات

بينما عيْنُ الحلزون

تقتنص ببريقِها

ألوانَ نُمور حالِمة

أنفاسي كانت تتغلغل

في رئَــتَــي مساءٍ مُعَربد

وفي أثلام أرض المرايا

من حيث جئت، مخفوراً

بجوارحَ سبق أن سَفَّت

من طَمْي العدم...

والآن، افتحِي الباب

قبل نضوب النَّشيد

المتصاعد من أهدابي

افتحي بسرعة

فَدَمُ اللّيل بدأ يتعفَّن

والجوارح التي تَخْفرني

والتي هي روحُ العالَم

قد تمضي لتضيع

في أدغالِ

كوكبٍ

بعيدا!..

بِلَـمسة من أكُفِّ النسيم...

طريقكِ إليّ مُمَوَّهةٌ بآثار مرَح الفهود، ولكنّك تتقدّمين. والمسافة التي بيننا، بلمسـةٍ من أكفّ النسيم، تصيرُ نهراً ميّتاً. أمّا الغرقى فيه فـأحياء. وإنْ أحدُهُمْ أنْشِـبَـتْ في عُنقه الأظافر التي من فيروز، فسرعان ما يُلفَظُ إلى أقرب ضفّة. والكـراكيّ هي التي ستمضي به ليُدْفَنَ في أجمل نجمة... هل قلتُ لك إنِّي أنا نفسي كنت نهراً ميتـاً، ثم جاءت تماسيحُ وبدأتْ تطوفُ حولي، فغافلتُهـا ووثبتُ بقـوّة، في هيئـتي الآدميَّـة هاته، وحملتْني ساقاي بأقصى سرعة إلى هذه المدينة، حيث أُوجَدُ بانتظارك؟ وأنتِ أنتِ، ستصِـلِينَ ذات فجـر يقـذف من بين شـفتيه موسـيقيِّين أمـامَ بـابي، فيمـا السّيمفونيات التي تُقاسمني غرفتي، تشمِّرُ عن سيقانها وتقفز من النّوافذ. وستتكلمين عن الدّساكر التي مررتِ بها، وتروين كيف قطعْتِ أرضَ الثُّلوج العمياء، ذات أصيل سقط خلاله الدبُّ الأكبر في الأحبولة التي نصـبها لـه المنجّمـون، وكيـف جُسْـتِ المُرتفعاتِ، حيث كنت أبدو لكِ، أحياناً، في مدخل كهف، أو حتَّى على قمّـة شـجرة، مع أنّك تعلمين تماماً أنّي هاهنا، قرب الشّعلة التي تُقارعني الأنخـاب، وإذْ تُتعتـع، تُحاول أن تحرق أنفاسي وشَـعْـرِي. وأنا أبدو متوجّسـاً، حـائراً، وأحيانـاً، أدخـل معها باستماتة اليائسين، في مفاوضات

نُجْريها بداخل إحدى الجماجم.

لكنّكِ أنتِ أنتِ

طريقُكِ إليّ

تُرْعِشِينَـها

بِخطوة.

أكثـــر زرقـــة

لا تتركي يدك على جبين الليل
وأحلامُكِ، دفّئيها في بؤبؤيَّ
فالبردُ بدأ ينثر زَغَبه، هنا،
حول الأغصان والشِّفاه الراعشة...
أهزوجةٌ ما تتناهى إلينا، أكثرَ
زرقةً حتَّى من اللاَّمرئيّ
تقولين إنَّ ثمّة من يُغنِّي
في هذي الغابة؟
تقولين إن الغابة متبرِّجَةٌ
بذُهان السِّبَاع؟
وأقولُ لك إنَّه الشِّتاء
على أصابعك
يُحْصي ذنوب الخريف...
كوني، إذا شئت، أختاً
للسّحابة الجريحة
التي تتبعنا
وتلوّن شَعرك بذكرياتها
أَبيحي، إذا شئت، لعظامك أن تصير

أكثر زرقةً

حتَّى من اللامرئي!

لكن، خَبّريني لماذا

-حين فكرنا سويَّة

ونحنُ أمام مائدة الإفطار-

في كل تلك القُبل المنسيّة

على العتبات

انهرق نخاع الكأس

في معصمك

ثم علا صُراخٌ

في الحليب؟

الأمطار تَحَصَّنَتْ

لَمْ تَكوني
حِينَ الطّائراتُ التي من شمع
ذابَتْ في عيونِ موتاها

حدثَ ذلك في الهجير
كُنْتُ أصطلي بنارِه
وكنتِ مقيمةً في شتائك
ومَطَرٌ جميل
يَهمي على
حَلمَتيك

ثمَّ جاءتْ إناثٌ غريباتٌ
ماجناتٌ تَقِيّات
ألهَيْنَني زمناً

عن النوم في حديقة

ولمّا، أخيراً
في حديقة نِمْتُ
أيْقَظَتْني غيومُ يَدَيْكِ
ثانيةً

وما تَأَسّفْتُ
فقد تَعَوَّدْتُ
أن يتكاثفَ الحنينُ
في أظافري
أنْ تغرَقي
في مياهِ أعْماقي

وكانَ يَحْدُثُ أنْ تتحوّلي
ريحاً مراهقة
ألَوِّحُ لك بيديّ
فَتُسْقِطينَ أوراقاً

وتهبّين في أحداق

قُلتِ: نَلْتَهي بالآلام
نَجمعُ ضوء الوَهم
بأهدابنا نتضامَن
مع دم العُصفور

كُنتُ في الهَجير
أذابَ إناثاً غريبات
سَخَّنَ ألفاظاً
فتّرَ رعشات
لكنّ اللغات
هبطتْ من أعالي الجبال
والأمطارَ تـحصَّـنَـتْ
في الخرائط

ناعمةً كانتْ لَفْظَتُك
أعياذُكِ انسكبتْ في قواريري

والمُقَل المغروسة في الثّلج

بَدَأَتْ تُزْهِر

في الثّلج

ولم نكنْ

حين غذّينا بالسّفر

السّهر الطّويل

حين وجّهنا أنْفاسَنا طلقاتٍ

إلى قلبينا

ودَلَّيْنا التماثيل

في الآبار

قُلْنا لَو المِرآة أصْبَحَتْ

صَرْخَتَها الخاصّة

لَتَحَوَّلْنا إلى لبلاب

وأبْقَينا جسدينا في السّرّ

وأنهكنا التّلال!

وإذا جاءنا البَحر
طَمَرْناه في الكتب
حتّى يُصْبحَ هديرُه
ذا أبعادٍ فلسفية
فتنسدل السّكينة
على السّواحل
وتُقيم الموسيقى
في جنون الأزهار

قبل أن أعرفَك
عَرَفتُ ومْضَ ذكرياتك
كنت قد فقدت
ميولي الاجتماعية
استبدلتُ بها أشواكا
ذات أحلام
أجراساً
تَعرف القلق والنّدم
عَدَمًا ناضِجاً

أنيقاً

يُوَشْوِشُ لي:

ستجدُ السّرّ كلّه

في انقصاف عمر سلحفاة

في انقطاع أوتار نَجْمَة

وفي وسواس الثّواني

ستكتشفُ زمنك

قَبْلَ أن تريني

سرّتْكِ لوعتي

حَدّقْتِ في انعدامي

قطفْتِ بتلات ظلامٍ

ابْـتَـعَـثْـتِـني في ضَلالة رقيقة

في أبد متثائب

في مشهدٍ أخير

في ضاحية

حيثُ كان جَسَدانا

يَعْكِسانِ الأصْداء ألواناً

فيما، أمام أقدامِنا

كانتْ جُسُورٌ كثيرةٌ

تَتَبَخَّر!

- 4 -

قصائد من مجموعة

فراشة مِن هيدروجين

كوكبٌ مُعربد...

كوكبٌ مُعزْبد

فوق رأسي

ينزفُ مطراً

قاتماً، يملأُ جِراري

بألم الأعشاب بِقلق

الطّير

تبْقى يداي سعيدتين

بعد أن يهمسَ لهُما النَّبيذ

بنشيد طفولته

لفائــف سحريــة (1)

نحن وحيدان في هذا المقهى

ولا نأمةَ تصلُ آذاننا، عدا

هسيسِ عِظام فجر

يَشيخ سعيداً

نُنصت، نُدخّن لفائفَ

سِحريَّة، يخفّ وزنُنا

نرتفعُ، مُبدّدَيْن في

الهواء، مَطراً

ونُدَف ثَلج...

الأرْضُ نفْسُها

داخَتْ، فما عادتْ تجتذبنا

ويبدو أنّها كفّتْ

عن الدّوران!

غربانٌ تحسبُ أنّها كواكب

بدأتْ تدور حولها

لفائف سحرية (2)

نُغنّي بألسنةِ الذين ركضوا
بِمُجرَّدِ ما وُلِدوا
فِيما ثلاثُ غيمات
تُحتضر حَوْل رأسينا
الأُمّهاتُ في هذا المقهى
أقلُّ من أسمائهنّ
دخّنّا ودخنا
فمضتْ عظامُنا
لِتؤازرَ أخانا المطر
أخانا السّاقط لكنّنا
نُبجّله
مِن الدّخان صُغْنا أطفالاً
دَلفوا إلى بطن أم
وهناك تلألؤوا

لفائف سحريّة (3)

مِن حولنا قلوبٌ صغيرة تُشقشِق

وصناديقُ يُقالُ فيها الحديد فيه

بأسٌ شديد

لكنّنا ندخّن وجداولُ النّسيم

بحُنُوّ تُلامس أكتافنا

نعلمُ أنّ جسدينا قد يضيعان

في هذه العاصفة

من التّصْفيق

الآبار محظورةٌ في هذا المكان

إنّه المقهى الذي وأدوا

تحْت آلام القمر

يَومها، تركْـنــا رأسينا في غابة

لِتستعملها العنادل

المضروبةُ الأعناق

تَـرْسـو المُـرَبّـعات

رغْمَ أني مُخْترع
بارومتر الآلام
فقد سئمتُ المكوث في هذه الجزيرة
كلّما انزاحتْ نحو السّاحل
أقول: إنّه النّسيم الهائم
كلّما بدأنا نتأمّل الشّفق، كلٌّ
في قَعر كأسه
إلا وترسو قُرب رؤوسنا المُرَبّعات
التي تأسر بين أضلاعها العَصافير
ويوم أُعيدت إلينا أنْفاسُ الغابة
بدأتْ أرقامنا
تـتـبَـعُـنا!
ثمّ سقط وجهي الحجري
على وجهي
وها إنّي أزْمعْتُ الرحيل

بعيداً، بعيداً

حتّى مدينة المعارك

التي تنزلق على جُدرانها

الكدمات

حتّى ضِفّة النّهر الذي يُدَندن

كُلّما ابتسمَ فيه غريق

حتّى الصّحْراء

أُفكّر: لِمَ كلّ هذي الدّموع

التي تتشكَّل خِفْيةً

تحْت أظافرِنا

ولِمَ تتوجّسُ الأشْجار

من شُعوب العصافير

أفكِّر: يجبُ أنْ نستمرّ في السّير

حتّى الصّحراء

التي تَنْبت فيها المسامير

أحياناً، يبدو لي

أنَّه لا مبرّر لوجودي

سوى أني زاويةٌ

في مُثلَّثِ رعشات

بَرقٌ في غابة

شررٌ في عيون الصّيف

في ربيع العمر

رأفةً، لمْ نُوقظ الدّموع
المتمدّدة جنب رأسينا
وكلَّما عمّ الأرق
أعاليَ الجبال
زوّدْنا الجداولَ المُنْهَكة
بنغمات ومُسكّنات
كُنَّا بعدُ في ربيع العُمر
فما إنْ ضربنا خِياماً
لقبيلة الرّضّع التائهين
حتَّى دفعتْ بنا العصافير توّاً
إلى مشارف السّـتّـين
واحدٌ منها امتزج بهمسك
ثمّ طار بعيوننا فلم نعدْ
نُدرك منه
إلا الرّفيف

لكنّنا، بكلّ تأكيد

سنسترجع هاتيك العيون

حين تسقط مع الثّلوج

في صباح شتائي

خيرٍ

من ألف شهر

حـيـرة

لمْ أنصبْ فخّاً لطائر

نِمتُ قليلاً جنْبَ شَجرة

وانْغرسَ حُلمُ الطّائر

حتّى أسافلِ جذورِها

أحْلامي أنا مُشَـتـتـة

في الآبار

وثمّة عينٌ تجوس

دائرةَ الصّفر نفسه

الذي رَسَمَتْهُ أنْفاسي

أمضي في سبيلي الوَعْر

وإذا ما تعثّرْتُ وسَـقَـطْت

يَبْعـثُني الضّحكُ واقفاً حتّى الغيمة

التي كانتْ أمّي قد سلّمَتْها

إلى سماء الأيتام

أمْضي في طريقي الوَعْر

لا أقلقُ إنْ كانتْ قدماي المارقتان

تنبُشان المثلّثات تنفُشان ريشَها

ولا آبهُ حتّى بصورتي التي
بدأتْ تُـثـقـِّـبُ المرآة
فما الذي يُمْكن أنْ أفعله
بكلّ تلك الحبال التي ستتدلّى
من هاتيك الثـقوب
-أنا الذي رأيْتُ يوماً
جدولاً
يتسلّل
من فتق في ستارة-
وقلت: جاء لِيتحصّن
وماذا يُمْكن أن يرى طائر
في حُلم
ما الذي تستطيعُه الشّجرة
بعد أنْ تمّ تأجيلُ المطر
وأين طريقي، الآن
وقد بدأ الضّوء يتخفّى
في الذّهب؟

ذِكْـرى

كان عليّ أن أكون حاضراً

أثناءَ الاستقبال

أنْ أحتمل كلّ تلك القسوة

أنا الذي لمْ أقُلْ يوما لجدول:

أُصمُتْ

أنا الذي كنْتُ أشْتري النّوم

بنقودٍ مسكوكة من أعصاب الجبين

ولا أرى في الحُلم سوى

شجرةٍ مِن ماء

فيها يغرقُ العُصْفور

وتنْطفئُ جمرةُ الرّيح

قم لتكون حاضراً للاستقبال

قال أبي

ذلك أنّ أَحَد أسلافنا

قدْ أبْحر

من ميناء الموتى

بِحنين

أحياناً، أستدرجُ كوابيس

إلى غرفة نومي

صمتي جَـبَـلٌ

مكسوّ بالجليد

فـما عليّ إلا أنْ أُمسك

عن الكلام

لأتزلَّج وأنْـتَـشي

لكنْ أمتعُ من هذا

بعضُ الكوابيس

التي تندثرُ فيها سُلالات

وتتبخّر جُزُر مغناج

وتتذكّر الصّحراءُ البحر

بِحنين

رســـالـة إلى نفسي

أنا على ضفّة نهر.

السّماء مُلبّدة

بِزعيق صفّارات الإنذار

في أحد الكواكب.

أسْمع أيضاً قرعاً في عظامي

فكأنّها طبول دقيقة.

في وسط النّهر، تَظهر السّمكة

آكلةُ الغرقى.

على الضّفة المُقابلة، امرأةٌ تتعرّى.

وها هي تَسبح على ظهرها، تتلذّذ

مِن رُكبتيها.

تُقْبل نحوي ثم تعكس وجهتها.

إنها متردّدة، إنها متردّدة.

مياهُ النّهر غاضبةٌ من هذا.

غضبُها يَصّاعَدُ شَفراتٍ

تُصيب الكثير من صغار الطير.

هل أبْقى على هاته الضِفّة

التّعيسة؟

يَمرق أمام عينيّ طائر

إنّه يشحب ويشحب

ربّما هو خائفٌ من الشَّفرات

ربما هو يتذكّر الشجرة

التي احتضنتْ

حُبّه الأوّل.

أأبقى هنا

مُنصتاً للقَرْع المتصاعد

مِنْ عظامي؟

اكـتـئـاب

وطنُ العين

مَحجِر أو منطاد

بالمنطاد يمكنك الصّعود

في الفضاء

وصهيلُ الأرض

يندٰاحُ من كتفيك غناؤها من

عينيك

العيونُ قد تكون مستطيلة

وأحْيانا على شكل مُنمنمات

قد تَغْمِز العُشب تُقَبّل النّدى

فلها شفاه

ورُبّما تجوبُ حاناتِ المدينة

أثْناء نوم أصحابها

آه! في تلك الأيام

في تلك الأيّام الخوالي

كُنا شَعباً قويّ الشّكيمة

عيونُنا تقْذِفُ العَدُوّ

بِشُهُبٍ بحجارة من سِجّيل

من أجل ذلك، كان يَكْفي

أنْ ننقعها لليلة كاملة

في يُودٍ قويّ

ثاقبةً كانتْ أبْصارُنا

فيها يُسْمَعُ هديرُ الموج

وتنْعكس ملاحمُ عظيمة

لكنّنا كنّا أيضاً نتعذَّب

حين نتذَكر أنّ عيونَنا

كانت، يوماً بعد يوم، تزداد

تَصَلُّباً

وها نحن، واحداً فواحداً

ننزوي، كئيبين، كلٌّ في قعْر

موجة

لأنّ لنا عيونَ غرقى

لأنّ حياتــنــا

خالية من الدّموع!

كُـنْـتُ مـن أبـطال هومـيروس

أريدُ أنْ يبقى النّسيم على أناقته
أن تحضُر الفرس في الموعد
وأن تمضيَ بي
في الوِجهة التي تختار

أريدُ نهراً يُوَشّح صدري
فالبارحة، رأيتُ في الحُلم
أني نازلتُ آخيل
في الإلياذة

في الواقع، لا أُصِرّ على شيء
مِن هذا
فأنا الآن هادئ
وعيناي وحدهما العنيفتان

البِـئـر

(كما في حُلم!)

كان بُخارٌ ونصالُ النّغم تتصاعد من البئر التي يُنكران وُجودَهـا في غُرفـة الفُنـدق هاته وأنا أؤكّـده... عـبـثـاً يَسْعـيـان- جــاري وِلْيــام الأرمنـــي والخادمة - إلى إقــنــاعي !

الخادمة بِكاميراها التي لم تعدْ تلتقطُ صُوَراً إلا لطائر يَقضي الليل في شَعْرِها تُقـدّمُ لي كأساً، أما وِليام فيتمشّى في الرّدْهة... ورغْمَ شَعْرِهِ الكثيف فهو يَمْشـــي كأصْـلع، وهذا من غريب التّصنّع! كما أنّه سَيَمْضي إلى الدّغل ويجمعُ أرمينيات من الأعشاش ليعيش فيها حين لا نكون نراه...

تُحَدثني الخادمة عنْ رَجُل اخْتُزلَ بَيْته إلى مُكعّب صَغير، فيما تَصْنـــعُ شُـموعاً من دموع، ومن النّافذة، يَدْخُل الضّوء مكسوراً ومُرَمّماً.

ثمّ ها وليام، تتوالى على وَجْهه طَرَقاتُ المِلح، وهو يتكلّم!

عبثاً يُحاولان زَعزعة يقيني! ...

يُحاولان تشكيكي، لكنّني أبْـقـى

واثِقاً كخُطْوة تحت المطر...

فليـُـقْـضَ عليّ بالبقاء

في غُرْبَتي هاته

مع رائحة النّمل التي تَطنّ

حول المصباح

ولأبْقَ أسيرَ هاء الهواء

إنْ كانتْ لا توجَدُ بئر

في هذه الغُرْفة

يـوتـوبـيـــا

أخيراً، أيّها القلبُ بوحشتك
القليلة الغامضة
تنزلُ من نجمتك الأليفة
واضعاً يَدك في يدي
يا قلبي الذي غطَّى حدائق
بالنبضات
وها أنتَ، يا هذا الضّوء
تهُبّ متحمّسا
فقد ائتمنتكَ الطّيور
على وميض دمائها
والملاّحون الشّجعان
التحقوا بنا
بعد أن أجبروا قراصنةً عُتاة
على التخفــي في أرحام
بنادقهم
أنا، أيضا، مُتهـيّــئ

فــقد كنتُ من مشاهير الكماة

وذاك ما تشْهد به طحالب الهواء

التي اخترقــتــها سهامي

مُجتمعين، سنُفلح بكل تأكيد

الضّوء سينيرُ طريقنا

والملاحون سَيمخرون بنا عباب البحر

وقوسي وكنانتي

على كتفي!

سنُحرّرُ الأمواج من حياتها الرّتيبة

ونجعلها تمشي على أقدام

سنمنحُ هذه الأشجار التّعيسة

ذكرياتِ طفولة

ومرايا تبدو فيها

غيداً مرحات

ونُقيمُ لهذي الشموس التائهة

الفقيرة

أعْشاشاً بين السّوسنات

وبقصائد مضيئة

سنفتدى سَبايا الحُروب القديمة

والغيمةَ التي ما زالوا يأسرون

في بنطال قديم

لماياكوفسكي

ومن تشأْ من الصّبايا

اللواتي تحولنَ إلى أسماك

نُعِدْها سيرَتها الأولى!

يقيناً أننا، مجتمعين،

سننجح!

وقـــــــائـــــع

هذا الصّباح، لاحَـقـتـني
على امتداد شارع السّنجاب
- حيثُ، دَوماً
أقوم بنزهتي-
شجرة ذاتُ أنفاس حَرَّى
ذاتُ قوائمَ وبريق عين
وحين ابتَسَمْـتُ
اِنقلبتْ شجرة عادية
لها جذورٌ وعصافير!
يا أنا يا أنا
ها هي خلفك الآن
فإذا غنّيتُما معا
سيُغْمى على الغيوم!
وأثناء الظّهيرة، كُنْتُ أمشي
على الشّاطئ

وكانتْ، أيضا، تتبعني!

كانت تثيرُ زوبعة رمل صغيرة!

فقلت: يا أنا يا أنا

إنْ دغدغتَ إبْطها

فستهذي بأسمائك

إلا أنّ شيئا من ذلك لمْ

يتحققْ فابْتَسَمْتُ

لكنّي تذكرْتُ غابةً بأكملِها

كانتْ، في واحَدٍ من أحْلام طفولتي

قد اجتُــثَّــتْ!

وفي لحظة التذكر الأليم تلك، حلَّ

الأملُ فجأة، إذ بدأتْ

غابتي الضّائعة

تتنامى، من جديد

أمام عينيّ

معافاةً، رهيفةً، منسابةً

على شكل شُعيرات سوداء

في عانة غادة

وقفتْ فجأة، وحيدةً، مَشيقةً

قُبالتي، واقتَرَبَتْ، جريئة...

ثمّ كان السّلطعون الذي

ينحتُ في الصّخر

وكان الأشيب الذي

يبيعُكَ رطل الكهرباء بدرهمين

وكانت مياه البحر

والفلكيّات البرمائيّات

اللواتي قد يخرجن في أية لحظة

من تلك المياه

ويمضين للتسكع في الحقول

آه! الفلكيات عاشقاتُ الأعشاش!

وكانت الشمسُ تُلوّح جسدي

لكنْ لا شيءَ من هذا كلِّه

يُمكنُهُ أن يَعْدِل عندي

خطوةً

في شارع

السّنجاب!

حـكـايـة

رَجلٌ مفتول العضلات

يستطيعُ أنْ يُلاكِمَ الزَّبَد

مع هذا، جِدّ رقيق

رأى يَدَي الفجر تُقطعان

فأجهشَ بالبكاء

ومن دُموعه

تكوّنتِ اليدان مُجدّدا

أكثرَ من عشرين مرّة، نزل الدَّرج

نحو غُرْفة الأحد

في كل مرَّة، يطرق الباب مُطَوّلاً

ولا من مُجيب

بَدأ شكُّه يَهصره

وأخيراً، أدرك أنّ الأحد قد اختفى

أنّ الأيام المُتبقّيّة

في حِداد

وأنّه يطرقُ بابَ غُرفةٍ فارغة

إلا من رائحة الدّم

وبقايا كوابيس

وقفتُ إلى جانب البئر

أنتِ لستِ الآن في الغرفة- لأنك تبحثين في الحديقة، عنِّي أو عن السّحليّة التي غارتْ في رائحة العسل- فيما، من النافذة، تدلف الآهة، قادمة من فم بعيد، فتُحدِّب ظهورَ المناضد وتُحيل أغنيتي إلى غبار.

أنا الآن على الشاطئ: أمامي السَّحرة، صهْدُ عيونهم حوّلَ بيوتاً عديدة إلى دخان. العالم رهيب، يُكرّرون، فتنشبُ حروب ويتساقط نخاع شوكي كثير في صحون الباذنجان المقليّ وتشتدّ آلامُ كلَّ هائم...

سألتِني مرّة هل تُزعجني قرقعةُ عظامك أثناء النوم. حدث ذلك ليلةَ شابَ القمر. وكان الألمُ يتساقط مُوهِماً أنه مَطر. ومضينا معاً إلى الحديقة، فوقفنا إلى جانب البئر التي تَحلم ببلد بعيد.

وها أنا، من جديد، أُمرّر يدي على سنام منضدة، وأُدرك أني لن أذهبَ غداً لِرؤية عظام جدّي، وأنك ستصفينني بالكسول، العبثيّ، بالتائه الأبديّ.

أحياناً، تكون ماضياً في طريقك، فإذا بنحلة تعترضُ سبيلك، تتمدّد أمامك في عرض الشارع، فتبقى واقفاً فوق ضحكتك، ويحيّيك صديق يُوناني يَبذر قمح الإلياذة في أثلام كفه اليسرى، فتقف مشدوهاً، إنْ لمْ تلُذْ بالفِرار.

والتّفاحة في يدي...

كيف يُمكنني أن أشعل السيجارة،

وكلّ القدّاحات تَخَفّـتْ في رُدنيك، مُـذ رأيتِ في الحلم أنك تُحرقين خدّي.

بالأمس، كنّا في الطريق إلى عيادة الطبيب، ومرّ أمامنـا صـديقي المجنـون، وكان يكرّر: النّحلـة تحت السّـاطور، النّحلـة تحت السّـاطور، وشـعرتُ أنّي سأبكي أو أضحك، لكنه اختفـى سريعاً، وكان دمٌ ينسـابُ من الحُقن التـي تَخبّ جنب أقدامنا، والطّقس بداخل آذان الكلاب يتحوَّل من فاتر إلى شديـد البرودة، وفي الأعلى، عين الرعد تتّسع وتتّسِع.

لماذا تريدين إحراق خدّي؟

مسحتُ أعصابي بإسفنجة كما يفعلون أحياناً بأعصاب السـيارات ثم وجـدنا نفسينا على الشاطئ، وأردْنا أن نتأمّل البحر. لكنْ لم يكن قد بقي منه إلا سـبعُ موجات عجاف، يَحملن في مقاعدهن الخلفية سـبع نسـاء ضـاحكات. إلى أين يتّجهن بهن؟ في كفّ كل امرأة شمعدان. وفي الجُحور القريبة، سَقط مطـر على الفـئران. وكان هنالك من يَطوي البُسُـط ويَفْرشُ الصرخات.

والتفاحة في يدي تكاد تختنق. ويدكِ تعبـثُ بشعري.

الطبيب قال لا تركبا، بعدُ، سيارة جريحة.

التقيتُ بالحصان

أمضي شاحباً، لا أتوقف إلا جنب الفتاة التي تمدّ يدها فوق بحيرةٍ تقــولُ إنّ ماءهــا سينضب إن استمرّتِ السمكة الحمراء في عضّ الطحالبِ ذات الأحذية الحديد.

تقول: إنكَ شاحِبٌ لأني امتصصت لسانك وأنت نائم.

وأنا لم أركب اليوم حصاني لأنه كان قد نسي حدوة يومَ بلــغ أشــدّه قــرب جــدولٍ، وأصبح يهاب الضِّفاف!

التقيتُ بالحصان في آخر تانغو بباريس، وبالفتــاة حين كنّــا نلبس جواربنــا أمــام إحدى الكاتدرائيات، وسرعان ما وجدنا نفسينا نَصْــفِــرُ في طنجــة. روتْ لي كيــف كانت ترسم دوائر خضراء لِـيُـرَبِّيَ فيها الشِّتاء أغنامـــه. وقالت إنَّها بدورها ربّت فراشة من هيدروجين في شَعْرها.

أخبرتُها بأني، في الطفولة، كنت قد ركلتُ تمثالاً، فاخترقتْ شُعلةُ قنــديلٍ حشــداً من الكلاب نحوي. وكنتُ، كلما تشكّلتْ قارورة من ظلّ يمامة، أُســارع إلى مَلْئِهــا بمــاء بارد!

قالت: أنتَ نهري الشّاحب، أنت نَهري.

إنْ كُـنْـتُ مـنْـذُ الصّـبـاح...

لسْتُ من يُجامل. أتركُ قلقاً ينْسابُ في بُلعومٍ أو في أنابيب القصــب، حسَــب الطقس وكيفَ هو مزاجُ زهرة الآس على كتــف النّديمــة لينــا. وإنْ كنتُ منــذ الصّباح في هذه الحانة، جنب هذه النّافذة، بعظامي التي تتحمّسُ أيّامَ المآسي، فذلك للتعبير عن تضامني.

مع مَن؟ يُسائلني بعينه المخمورة البدينُ الجالسُ قبالتي، وكنتُ حسبته يعلم...

مع من! مــع أولئــك الأقــزام الــذين جعلتْ منهم الغابــة القريبــة أشْــجارَها القَصيرة!

الأَوْلى الآن الإنْصاتُ لِصَفير أظافري المأخوذة بِحُلمِها المُتَكرّر، حيْثُ أظْهرُ، بدايةً، في شاطئ. بعدها، تقتربُ منّي امرأة في لبــاس ممرّضــة- يتّضــحُ أنّهــا ليستْ سوى لينا- حاملةً في يدها حقنــةً تقــولُ إنّهــا مملــوءة بفودكــا روســيّة خالصة! ثمّ تُوجّهُ إبرتها نحو ذراعي!

فجأةً، أتنبّه لِما حَولي.

وأُشيحُ بوجهي نحو النّافذة، فما الذي أراه في الأعالي؟

طيورٌ غريبة تحلّــق فــوق الغابــة القريبــة، الــتي جعلت من أولئــك الأقــزام المساكين أشجارها القصيرة!

- 5 -

قصائد من مجموعة

رَجُل يبتسِم للعصافير

مُنذ دهر

منذ دهر وصنَّارتي في الماء
ولَمْ أصطد سوى السّأم.
لا أرى غَيْرَ قوس قزحٍ ينزل
وبإبرٍ ذهبيَّة
يُطَرّزُ حواشي الأمواج
ولا أسمع سوى أنفي الذي يئزّ كَنحلة
كلما أفرغْتُ زِقّي.
ثمّ خَرَج نديمي المساء من البحر
وأَقْبل نحوي
حاملاً طَيَّ أجفانه
سَمَكاً كثيراً وفي كفّيه
مَحارُ طفولتي!

مِزْوحة

اِبْــقَ في بيتك فلا جديد في الخارج

أتُرَاك تريدُ أن تَخرج لترى المجنون

يتأمَّل في غيمةٍ-مِرآةٍ

نِصْفَ وَجْهِهِ الأثيرِ لديه

أو لترميَ بحجر

الخذروفَ الخَرِف

الذي لا يكفُّ عن الدّوران

تحت أعمدة المصابيح

أمْ أنّك تريد أن تلتقط صورة أخيرة

لمِزْوحتِك المسكينة

التي تفكّكتْ عظامُها

بعْد أن لفظْتَها بلا رأفة

أيُّها القاسي

يا حفّارَ قبور القناني

هكذا تحدّثَ إليّ طيفُ أوفيليا

وأنا أمضي نحو الباب ومِنْ بعيد

يصِلُني هديلُ حمائمَ

مِن نَبيذ

مقادير مجهولة

مَعَ الفجر جاءتْ من مغاوِرَ بالشاطئ

حِسَانٌ مُشاكسات

وبأنغام النّايات

شرعْنَ في تهييج أشجارِ

الشَّارعِ الكبير

في الصَّباح تَوَزّعَ في جنبات المدينة

أطفالٌ من مرجان

ليحرسوا باراتٍ يؤمّها عميانٌ

وخيولُهم

بعد الظهيرة كان من بيننا من أَغفى

في سينما مِيالِيسْ فيما كانتْ سَارَة مايْلز

في دَوْرِ ابنة رايَنْ تتلقّى الشّتائم

مذعورةً

بُعَيْدَ الغروب ظهرت أشْباحُ

درّاجاتنا القديمة

وبدافع الحنين اعترضتْ سُبلنا

في الليل ربّما تُوجَزُ المدينة

هل حقّاً ستُصبح

في حجم قبضة اليد

بعد أن عشنا فيها طويلاً

كمقاديرَ مجهولة

في مُعادلات الرّيح

والليالي

سينما

خلال تلك الظّهيرة، ونحن في طريقنا إلى سينما مِيَالِيش، ما إن سُـمِعتْ صـفّاراتُ الإنذار وطلقاتُ رصاص، ما إن بـدأتْ سـياراتُ إسـعاف تنـاغي جرحاهـا، حتّى أوشكت أَيْزُومي، اليابانيّة العجـوز، الـتي كـانت تمشي أمامنـا، الـتي كنّا نعلم أنّ عظامَها مسلاتٌ رفيعة، و أنّ لها قدمًا داهية تعرفُ كيف تخضرّ وسط الأعشـــاب - أوشكتْ أن تتهاوى كَرْبا، رغم أن أصـوات الصّـفّارات وزعيق السّـيّارات كـانتْ تتناهى إلينا من فيلم على وشك الانتهاء في سينما مياليس.

ما زال أمامنا وقت قبل أن يبدأ الفيلم الذي سنشاهد.

قبالة السينما، بار مياليس، في مدخله حرّاس

يتطلعون إلى الدّاخلين

بعيون من كحول.

أصطحبُكِ لنشرب كأسا

10 خطاطيف يحلّقن فوق رأسينا. تسألين كيف تعرّفتُ إليهنّ أوّل مرّة؟

تعارفنا، ذات صبيحة بعيدة بين شجرتي كافور، كانت الشَّمْس تُوجِّه إلينا نظـرات مُحتدّةً، والطّفلة-السّاحرة، بِقُرْبي، تُخرج من سُرَّتِها كريّات زجاجية وترمي بها إلي.

فهَلْ أحدّثُك، أيضا، عن ذلك الجزء من البَحر الذي كنتُ أسـبح فيـه، بالسّـرّ، رغم أنّهم كانوا قد اتّخذوه متحفاً لعظام الغَوّاصين القدامى؟..

والآن، أَنْهِي كأسكِ حتى لا يفوتنا الفيلم.

حين ينتهي العرض ونغادر القاعة، نرى قُدّامَنا أيزومي مُجَدّداً. لكنّها في هذه المرّة، تمشي مرحة، خفيفة، متناسية للحظاتٍ أخواتِها اللائي تــركتهنّ في قريتها البعيــدة، هنالك قرب طوكيو. بل ها هي قد بدأتْ تغنّي، بفرنسيتها المُتكسّرة:

« إذا كنت موسيقياً أيّها الهيكل

العظميّ

فأقِمْ عندي

أَقِمْ عندي إلى أنْ

إلى أنْ

تكتسي باللحم

إذا كنْتَ موسيقياً أيّها الهيكل

العظمي

فلا تبق في المقهى

في هذا البرد... »

وها أنتِ ترددين معها:

«إذا كنت موسيقياً أيها الهيكل العظميّ

أيّها الهيكل العظميّ...»

من نصائحِ جدّي ومأثور أقواله

- لا تأبهْ لهمْ إذا

وضعوا عظامكَ تحت المراقبة

أَخْفِ الأجراس في الأعشاش

رُصَّ أحلامك في الأقداح

دُسَّ الكهرباء في الأحجار

فلن يعثروا ضدّك

على دليل

- لا تَخرج في منتصف ليالي الجليد

إِذِ المقاهي وحدها تجوس الشوارع

والعسس مُغلَقو الأبواب

ولا تَبِعْ حذاءك القديم

أُتْركْه حتّى تعود من سفرك

واسكُنْ فيه

- إذا رأيتَ الجرادَ يغزو رئات الرَّاقصات

وَزُكِمت الغُرَفُ وعزّ الدّواء

إذا رأيتَ مجنوناً يَلفّ صرختَه حول ساعده

وأُنثى من طحالب يضاجعها غريق

فاعلمْ أنّها حربٌ جديدة

تتهيأ في الخَفاء

- لا تُسافر أبداً

إذا أضربَ ربابنةُ البرق

وسرَّعتِ الأرضُ دورانها

لتُدَوِّخ النّمل

وتمّ استنساخُ الرّيح

فهذه كلُّها من علائم النّحس

- لا تَبِع القناني الفارغة

إذا كان ينبعثُ منها الشّخير

واتّبعْ نصيحةَ أبي حيّان

فلا تنم إلا وقُربَ رأسِك حجر

أو حَجَران

- إذا اقتربتْ منك نملة

ورأيتَ في عينيها صُفرة

وسمعتَ صرير مفاصلها

فاعلمْ أنّها لا محالة هالكة

وإذا رأيتَ الدموع

التي تتهادى على الأعشاب

قد سارعتْ إلى دخول

غيرانها

فاعلم أنها توجّستْ من خطاك

إيّاكَ ومشية العسكر

- لا تترك قطّ أنفاسك الاحتياطية

في مُتناول غَيْرك

- إذا اندسّت السّجائر في شَقّ

حائط

لا تَشُقَّ عليها

لا تجعلْها تخرج من مخبئها

مرغمةً

اِمضِ لتتجوّل بعض الوقت

وإذا مررتَ جنب جدولِ لُعاب

فحاذر أن تطأه بقدمك

اعلمْ أنه تسلَّل من سجنٍ للشّفاه

واسألْ عن بيت المُهندس الذي

اكتشف آبار نفط

في جمجمته

إنّه عَمُّك

الذي أنجبتْهُ لي امرأة

من الماضي السَّحيق

تعرّفتُ إليها وهي بعدُ

محمّلةٌ بموج الشّمال

في سنة زحفت فيها الكهوف

على المدن

وصارتْ، رحمها الله، في آخر

أيّامها

تَسُوخُ، شيئا فشيئا، في الثّلج

المتهاطل من ذاكرتها

إلى أن اختفتْ

كلية

- إذا كنتَ في سفر

ووجدتَ نفسكَ على مشارف

غابة

وأظهرتْ لك نبتة قُرّاص

لسانها

فاعلم أنّ المثلّثاتِ قاطعةَ الطّريق

تكمنُ للعابرين خلف الأشجار

تأهّبْ

أَخْرجْ قوسَك

اختَرِ الأصلبَ من سِهامك

وإذا خلّصتَ النّاس من ذلك الخطر

ربحتَ بطاقة سفر إلى جزيرة

جميلة وَشَبِقة

تجدها في استقبالك

عاريةً

ربّما يكون لي حصان

الفتاة التي أحببتُ وأنا في السّادسة عشرة
في البداية، لم تُبادلني عواطفي
حزنتُ ثمّ نسيتُها
لم أعدْ أترصَّـدُها كلَّ أحد أمام بيت أبيها
حيثُ تصنعُ الكعك
تَدْرُس حياة الجراد
وتُنْصت إلى أغاني الحاجَّة الحَمْداويَّة
يحلُّ الأحد، فأمضي إلى البار ثمّ
إلى ملعب كرة القدم لتشجيع الفريق الذي أُناصره
إنّه دينامو البَرْنُوصي
أو إلى البار ثمّ رأساً إلى غرفة مريم
التي تبيعُ لي الهوى بالدَّين وفي المُقابل
أُطفئُ الضّوء قبل أن أستلقيَ في سريرها
وأتخيّل أنّها الفتاة التي أحببت
وأنا في السّادسة عشرة
بعد وقتٍ سئمْتُ لُعبة التَّخيل تلك وأصبحتُ أضاجِعُ

مريم باعتبارها مريم فحسب
التي تروي لي قصّة حبّ والِدها العسكري وأمِّها
التي قضتْ طفولتها في اليونان
ثمّ في غِمد سيفِ أبيها
لكنّ القصص، كما لا يخفى عليكم، لا تنتهي
كلَّ يوم أحد
تخرج الفتاة التي أحببتُ وأنا في السّادسة عشرة
تمضي لتُحيّيَ البحر، ثُمَّ لشراء
مجلّة متخصّصة في وصفات الكعك الجديدة
تتمشَّى على قارعة الطريق تتلقّى
التّهنئة من رجل يجوب البلاد بحثاً
عن امرأة أضاعها في مرفأ
يقول الرجل إنه يهنّئها بمناسبة حصولها على البكالوريا
لكنّي لم أجتز بعدُ الامتحانات، تقول هي
فيخجل الرّجل البدين
وينصرف ويقوم بجولة في رِواقٍ بالسّوق
الأسبوعيّ تباعُ فيهِ النَّايات بحثاً
عن ناي مسحور

يُمكنه أن يعزف لك تلقائيّاً سيمفونيةً
أو موسيقا أوبرا
لموتسارت لهايدن لِمِنْدِلْزُونْ
أن يُغنّيَ لك أغنية
للحاجَّة الحَمْداويَّة
أما هي فتنصرف لتذرعَ أرجاء
جناح من السوق الأسبوعي نفسه
خاصٍّ ببَاعَةِ الوجوه القديمة ومُساعديهم
من الكيميائين العميان
بحثاً عن وجه شهرزاد ووجه حسناء
من تمبوكتو
ووجه غريتا غاربو
في البداية، لم أكن أعرفُ أنّها
تستعدُّ للتنكّر، كنتُ وقتها
في الملعب أَصْفِرُ بأقصى جهدي
ضِدَّ الحَكم الذي أَعلن عن ركلة جزاء
ضدّ دينامو البرنوصي
لكنّي هذا الصَّباح، غِبَّ ليلة اعتقدتُ أنّي

قضيْتُها مع واحدةٍ من أجمل فتيات تمبوكتو

اكتشفتُ أنَّ ضجيعتي

لم تكن سوى مارية، الفتاة التي أحببت وأنا

في السّادسة عشرة

لقد استعملتْ قناعاً إذنْ

بعد سنة من الآن سنتخاصم

بعد سنة من الآن ستكثُر الدّرّاجات النّاريّة على

الطّريق التي تؤدّي إلى بِرْكَة عَوّا

بعد سنة من الآن ستتلوّى هضبةٌ من مَغص شديد

والمداخنُ ستتطوّعُ لتحمُّل آلام الولادة

عن الفتيات الحوامل

بعد سنة بعد اثنتين بعد ثلاث

سأكون في غابة بعيدة

لن أكون قد أصبحتُ فهداً أو ببغاء

سنجاباً أو زرافة أو عظاية

لكنْ ستُقيم معي امرأة في كوخ في غابة

أو في كوخ على شَفا حوض تعيش فيه تماسيح

صغيرة مسالمة تستطيعُ حتّى أن

تُصافحكَ بأطراف أذنابِها

هنالك قرب تمبوكتو

سيكون الطّقسُ حارّاً جِدّاً

وربّما سيكون لي حصانٌ عظامُه

من شرار

حصان هادئ جدّاً روحُه

من مسحوق الذّهب

ربّما تكون لي درّاجة

تستطيع بصرير عجلاتها أن تَصنع السّراب

الذي يجتذب عابرين كثيرين

هكذا سيُمكنني أن أستقبل في كوخي

راقِصاتٍ شهيراتٍ

مثل الجوكندة

وأبطالاً في القفز العُلوي

مثل حمُّورابي

بعد سنة بعد اثنتين بعد ثلاث

فثمّة أنفاسٌ باردة تنطلق الآن من عينَيّ

وتُصبح ضبابة كبيرة تجدُها في المساء

قد حاصرت القطارات والأرامل

لذا أسارع بِالوقوف وربّما بعد دقيقة

بعد دقيقتين بعد ثلاث

سأغادر هذه الغُرفة

في طريقي إلى بار مارسيل سيردان، ألتقي

زميلتي في العمل، لا أستطيعُ تذكّر اسمِها، لكنّها

تدعوني لمعرض لوحاتها

الذي تقيمه في عُرض البحر، بحثاً

عن التّميّز

لا أستطيعُ أن أسبح حتّى هناك، أقول لها

فتُجيب: لقدْ أصبتُ شَعْرَكَ

برصاصاتي

وفي شارع الإربيانة، أجد أعزّ أصدقائي

في انتظاري نمضي لنشرب معاً، إنّه ذو سُلطة

في البحر إنّه

ينشغل الآن بتوجيه سِهام البارانويا إلى

أيائل مُتَخفّية خلف عجلات السّيّارات

فيما أفكّر في مُستقبلي

وما سأفعل وما سيحدُثُ لي

بعد سنة بعد سنتين

بعد ثلاث

قُرب السَّناجب

العشيقة غائبة منذ أيام

الغرفة نائمة منذ ساعات

مُطوّقةً بسياج من لُعاب جدرانها وأنتَ أمام الباب

ولا تَدْخُل

وكُنْتَ وقفتَ أمام باب المسرح طويلاً

ولم تدخل ثم جاءك الخبر

بأنَّ الممثِّل القصير الذي كنت تنوي

أنْ تُجْرِيَ معه حواراً لصحيفتك

اختفى مِنْ علَى الخشبة بعد أن تهشّمتْ أوفيليا

وتناثرتْ قِطعَ زجاج

قالوا إنَّ لِلْمُمثل القصير أنفاً من الهمهمات

قالوا إذا أُغْمِيَ ثانية على الشَّفَق

سيَظهر من جديد

الموتى ساكنو القناني

ويهطل المطر

وتبرز تجاعيد الحلزون الهرم

ليس لازماً أن تكون هاملت لتشفق على أوفيليا
ولا داعي لأن تركلَ الباب بعنف
من أجل أن تُوقظَ الغرفة
وإن جاءتْك من الدَّاخل أصواتُ ارتطام الرُّوبوطات
فمعلوم أنها تنبثق
من رواية الخيال العلمي
المفتوحة على المنضدة
قُرب قطرة الحبرِ المَهيبة
وأجراسِ النّحو التي ترنّ
على رأس كلّ ساعة
لا تنسَ أن تكتبَ إلى الغائـبـة
ياه! إنك تتطلّع إلى الأشجار
ياه! كمِ السّهر طويل على الأغصان
وفي مدفن الألوان النّافقة
ياه! في الأعالي غيومٌ من السّلوفان
تُخشخش في الريح الباردة
لا داعي لأن تركل الباب
يحدث أن تنام الغرف

أن يتناثر أحدهم شظايا

أن تفرَّ امرأة من تعاسة رجل

ومع ذلك تستمرّ الأرض في تلميع شعرها

اِمْضِ بروح المتشرِّد التي تتقمصك

واقْضِ الليل في واحد من جراح الغابة

قرب السَّناجب الهاربة

من الغِـيـتُّوات

رسالة

لا تقلقي فأنا لستُ تعيساً قضيتُ ليلتي الماضية في كَنَفِ الغابة حواليَّ فضاءٌ مدهش تتماوج فيه أنفاسُ السَّناجـب وقبل لحظة أمكنني أخيراً الدّخول إلى الغرفة أتطلّـعُ من النّافذة فأرى الفجرَ كما عرفناه يتقدّم على قدميه القديمتين يتصفّح مُسَوَّدة اليـوم القادم يُدخل بعض التّعديلات ربّما على كمّية الأمطار المُتوقَّعة في الظّهيرة هذا أمر مستعجَل فقبل أيام شُوهِد النّوتيـة وهم يُهدّدون القطرة التي أفاضت النّهر

لا تقلقي فالكلمات التي تحيا في رئتيّ آمنة كُلِّية والـدّموع النّائمة على كتف الجـدار قبالتي تفوح منها رائحة الدّموع مِذْوَدُ الدّراجة أيضاً مملوء وخالي الذي كان سـيُعْدَم لكثرة حروف العِلّة في اسمه عَفوْا عنه في آخر لحظة وكان منزعجاً من عطل طـالَ أنفَه لكـنَّ حاله تحسَّنتْ بعد أنْ قُرِعتْ في كتفيه دفوف العافية

ساعاتُ هذا الصّباح متساويةُ الطّول لم تسقُط ولا ريشة بين فكّي الجمرة المتربِّصة ببُغاثِ الطّير

كلّ هذا وأنا أفتقدك بالأمس مضيتُ نحو مكتب البريد في طـريقي قـابلتُ الرّجـل-المسمار سـرّني كثـيراً أنّه لم يَصـدأْ كما ادّعى بعضُـهم ورأيتُ الباعة المتجـوّلين مصطفّين في طابور طويل يَحدِجون السّحب بنظراتٍ رهيبة

حين وصلتُ كان السّعاة يوزّعون التّلغرامات بالتّساوي على فقـراء المدينة واحـدٌ

منهم هَمَسَ في أذنِي اِبْتَسِمْ العـــالمُ جميل وكـــلُّ شـــيء ســـيمفونية تاســـعة وأراد أن يعطيَني تلغراماً لكنّ يديّ كانتا متشابكتين خلف ظهري فيا لساعي البريد الطّيب

كلّ هـذا وأنا أفتقـدك ودميتك اللعـوب لم تَعُد تحشـــرُ خَطْمَها في سُـــرّتها كما أنّي أعتني كثيرا بالألوان الخمسة التي هي أطفال اللوحة المعلّقة في غرفتنا وحتّى أثناء النّوم أحتفظ تحت القناع بابتسامتي

لا تقلقي أنتظركِ في هذه الغرفةِ المُعتمرةِ طاقيةً من حَبَب

جَدّ

على أقدامهمْ التي مشَّطت شَعر الحقول جاؤوا
من كابوس القبيلة كانوا قد نبشُوا دموعاً
ليستعملوها في أيام الحداد السَّبعة
كانوا من عشيرة يشترك أبناؤها دَوماً
في نفس الأحلام
في الليلة الفائتة رأوا في المنام أنَّهم حلازين
لم يستغربوا الرؤيا
رغم أنّ الفصل لم يكن
شتاءً

من مستودع للأموات تُحْفظ فيه جثث إلى أن
يحضرَ الأهل لدفنها، سَرَقوا
جُثَّة صديقهم
غطسوها ثلاثاً في بُحَيْرَة
نقلوها في عربة من شارع إلى آخر

وفي الطّابق الرابع للملهاة

أجلسوا الصّديق على أريكة في البلكون

مُوَلّين وجهَه شطر المَسْبَح الذي يبدو، من عل،

كأنّه غير واقعي

وفي الآن نفسه، بيِّنَ المعالم

عينا الصّديق مُوَجَّهتان إلى أسفل

كأنَّما هو، أيضاً، يتملّى بخضرة الماء

بمرأى أجساد غضّة

لإناثٍ يَـحْـقُـنّ صُدورهنّ

بِقليلٍ من وَهَج الأصيل

الثّلاثة شربُوا في صحة الصّديق

لم يـثْـنِـهم عن ذلك علمُهُم أنّه ميت

بل إنّهم وضعوا أمامه كأساً

وهو لا يدري كم ساعة مرَّت على موته

لكنه يُدرك أنَّ مُجالسيه

نثروا على وجهه أحلاماً بيضاء

كانوا قد اشتروها – للمناسبة- من سُوق ليْليّ

يذكر أنهم ألبسوه ثياباً
القميصُ جميل حقّاً
لقد نَسجتْه بأسنانها عاقر
كانت قد تبنّت كُوسَاةً ونحلتين
قبل أن تتيه في الحقول، مُلوِّحة للفراغ
بجدائل تعود إلى أيام
طفولتها

يَذكر آخِرَ مرّة دخل فيها بيتَه
وكَيْف فوجئ إذ لاحظ أنّ الأبواب
أصبحتْ من عجين
وكيف أقلع -أمام عينيه-
المَوقدُ بجمراته المشتعلة
ودوّم طويلاً في المطبخ الذي
كان، هو، قد زيّن جدرانه
ببلاطات اقتلعها

من قبور

ما كان أحدٌ، بعدُ، ليزورَها

لكنّه، الآن، لا يستشفّ جنب المَسبح

إلا أشكالاً هلامية

فيما جلساؤه يتحدَّثون عن خُودٍ حِسان

يدغدغ ظهورهنّ النّسيم

عن قطراتِ ماء خضراء

تلتمع على أرومة نهْد

فكيف لميّت أن يبصر حتّى

وإن كانتْ ثمّة عين

تُوَشّي جيب قميصه المُطرّز

حتى وإن كان حديثَ عهد بالموت

وكانت العينُ نَجلاء

حتى وإن كان في آخر جلساته

على سَطح الأرض

حتى وإنْ، بين عينيه، كان يَعْبُرُ تابوت

ينوء بحمولته من الأجراس

كيف لميِّت ألا يتّخذ بين جلسائه
هيئةَ جبلٍ مَنفي في جزيرة
ستجيئه عصافير
من أغصانٍ في جرح
وبمعاولَ كانت، لسنين،
ذاتَ سطوة في المستنقعات
تكسُر أحجاره وعِظامه

في البرد أغفى الأصدقاء
ويَدا الميّت موضوعتان
على قوس قُزح
انداح، بأناةٍ، من كأسه

لكن، كيف لميْت
ألّا يضجرَ بين الأحياء
والقرقعةُ على أشَدّها في نوم جلسائه

والمساءُ قد ظهرتْ حَدَبَته

وثمّة أطفال أطلّوا من باب مُوارَب

ثم فرّوا خائفين

كانوا قد استيقظوا ثم ناموا

ثم استيقظوا، وأخيراً قرروا أنَّهُم

استمتعوا برفقته

كما لنْ يتسنّى لأحد أن يفعل

وأنه آن الأوان ليتخلّصوا منه

تحت جنح الظلام

أيدفنونه، إذاً، في حديقة،

أيرمونه في البحر؟

لا، بل يُمَدّدونه أمام باب

مستودع الأموات

فالبحث عنه، لا شكّ، جارٍ

هذا ما اقترح أكبرُهم

الذي كان قد هيأ له شاهدة قبر

سيتركها تحت رأسِه

إن مرّ أحدٌ بقبره، سيقرأ على تلك الشاهدة:

- هُنا ينام نومته الأبديّة

البحّارُ الذي قضى ليلته الثّانية كَمَيّت

ساهراً، يتملّى بأشكال سبّاحات مشيقات

من الطَّابق الرابع للملهاة

الذي كان، أيضا، شاعراً

وكتبَ أبياته الأخيرة

في مدح إبرة بقيتْ، بإخلاص،

ترفو ثيابه إلى أن ابيضّت

عيناها

الذي غطس في أعماق بِحَار

ظَهَر في أحلام سفن

شاركَ في تشييد مدنٍ

من مَرجان واشتغل

بمهنٍ أخرى

الذي، في طفولته،

أنقذَ أراغنَ

كانت، من فرط كآبتِها، قد ارتمتْ

في الآبار

الذي لم يَحضُرْ قطُّ

إعدامَ شمعة، وجَابَ قُرىً بعيدة

على صَهوة حصانٍ من

اللوبياء، ثم مات

غريقاً، بعد أن صارع الرّبْو

زَمناً، وفي آخرِ

أيّامه، طال قذالُه، لعكوفه

زمناً على صُنْع سروج

من ثلوج، وأصبحتْ له غُـنَّـةُ

من ينفثُ الكلمات

عبر أنفه الزّجاجي، وشفتان تشتغلان

بالكهرباء

- 6 -

قصائد من مجموعة

عُيونٌ طالَما سافرتْ

بَحْر أسود

قارِبُ النّوم يَمْخُر بي عُبابَ بحرٍ أَسْودَ يُبْعدني
عنْ غُرفتي في هذه الليلة الشَّتْوية
الموجُ العاتي يتقاذفُه
سيوفُ البرقِ، أيضاً، تَهْوِي
في الأعالِي، بلا رحْمة
وخَوفي يتركّز في حاجبيّ!
لكنْ، فوق رأسي، أنصافُ الطُّيُور
التي بقيتْ حيَّةً بِمُعْجزة
تَضعُ رُضّعاً في مُهود
وصَرَخاتِهِمْ في صناديق البَرْد
وَتَعِدُني بحياةٍ جَديدة
حَالَمَا أستيقظ
مِن هذا الحُلم العنيف!

نُنزِل قِرْميداً من العربة

نُنزِل قِرْميداً من العربة فيما
على كُومَةِ الرَّمل القريبة
نَحلةٌ عَطُوف تُزْجِي لنا نصائحَ بالأزيز
إنْ نُطبِّقْها تَتقوَّ عضلاتُنا بالتّأكيد
فنحنُ نريدُ أنْ نبنيَ مأوىً للعجوز
الَّتِي مرَّتْ بنا مترنّحةً في الشّتاء الماضي
واختفتْ في حَقْل العَدَس
مرّتْ بنا آهِ مرْزرْ...رَتْ
مرّت بنا مرْزرر...رَتْ
هكذا غنّينا لكِ يا من ترنّحْتِ في الشّتاء الماضي
وأنتَ أيّها الماضي، يا مُقوَّسَ الظّهْرِ، يا أَدْرَدُ
لقدْ أتْرعْنا جيوبُكَ
صُوَراً وأسْنانَ حليب
وأنتِ يا مُدَرِّسةً كان رأسُها
يُؤلِمُها في الأصباح خاصَّةً واسْمُها

كان يبدأ بالجيم

تَرَكْنا لكِ ما تيسّر من هَأْهآت

ونَمَشاً كثيراً

كلُّ نمشة لها مفعولُ حبّة أسبرين

كِرامٌ نحن وأطفال وسعداء

ولم نعد مغروسين بين نباتات الحُرَّيقة

كما كُنَّا عليهِ في واحدٍ من أوائل

أحلامي

نمدحكِ يا مُترنّحة وكم ودِدْنا

لو دغدغنا إبطك الأيمن

فقد عَرَفْنا أنَّكِ جدّتُنا بعد أن سمعناك ذاتَ ليلة

تُعلّمين رُضّعاً كيف يصطادون شُهباً بالشّباك

وقيل إنّكِ ذاتَ سهرة كنت تُربّتين

على حدبة الرّاقصة

فيما كنّا نَنفخُ في الهَرْمونيكات

نَنفخُ ونَنْفخ

نَنفخ فيها لتبقَى مُعزَّزةً ولا تَصْدأ

فَيُلْقَى بها في غياهب السّجون

ننفخ ونُغَنّي: مرّتْ بنا آه مزْزْزْ...رَتْ

مرّتْ بنا مزْزْزْ...رَتْ

وهكذا إلى أنْ ننتهي من البناء وَوَقْتَها

سنُقيم حَفْلاً

يَحضره الباعة المتجوّلون والمساكين

وراقصة حدباء

وابنُ السّبيل والمُدَرّسة بِصُداعها

النّصفيّ

وكذلك الوجودُ والعدم

والتّلميذات اللطيفات اللواتي فتحنَ قلوبهنّ

لِلسَّيَّارات الصّغيرة الحزينة

التي وُلِدتْ

بِلا عجلات

أنا الآن

أنا الآن في قرية جدّي
أقتعد كرسيّاً صغيراً تحت حائط الجامع القديم الذي
يتدلّى حواليه صبّار كثير
وثمّة كلاب تقضي قيلولتها في ظلّ كومة تِبن
فيما تتحادثُ جماعة المقامرين تحت شجرة
خلف الجامع
بأصواتٍ خافتة ومتوتّرة
عن عبد السّلام بائع الكَيف
وكيف اعتقله الدَّرك في الصّباح
وكيف كانت الومضات تنثالُ من شَيب رأسِه
قويّةً
وتتناثر في الجوّ متأجّجةً
أتُرى كان ذلك من خوفٍ شديد
أمْ من حِقْدٍ عنيف
أمّا أنا فكنتُ أيضاً قدْ قامرتُ ذات صباح

بحصانٍ صغير

وسَاعَتَها كانتْ أنغامُ جازٍ تتنامى

في أذني اليمنى

وفي اليُسْرى كان يُسْمَعُ حدّادون

وهم ينهالون بمطارقهم على

حَدَواتٍ وخسرتُ حصاني

الصّغير

وها أنا تحت حائط هذا الجامع القديم

أتابع قراءة رواية

روايةٍ رهيبةٍ عجيبٍ أَمْرُهَا

ياه!

ما أكثر قتلاها!

قُبيْل الغروب

قُبيلَ الغُرُوب، نَفَضَت الحُقُول

عَن ظُهورِها قُطعان المَواشي، فلم تَذَرْ

لها من أثر

هكذا، لم يَبْقَ في جنباتها الذّهبيّةِ الأعشاب

سوى بعضِ الثُّغاء الخفيف

الرُّعاةُ عادوا حَزَانَى

وأرادوا الاخْتِفاءَ عن الأنظَار، فدَلَفُوا إلى الزَّرائب

وَحْدَهُ الرَّاعي الأحمق بَقِيَ واقفاً وسط القرية

مُتهلِّلاً، يَعزف للرّيح

مُتَرَجِّياً

أن تجلبَ بناتِها شبيهاتِ الدِّبَبة

حتَّى يرتعبَ منهنَّ الأطفال المتحلِّقون من حوله

فيضحكَ

من قفزاتِهمْ وصياحِهمْ

ومِنْ رَفْعِهِمْ لعقائرهم بنداءِ

أمّهاتِهم

المُعلَّمة تُزَيِّنُ بذْلتها

المُعلَّمة تُزَيِّنُ بذْلتها بِطَائر
في حجرة الدّرس تقول إنّ المعادلات
اختفتْ فجأةً من رأسها حين كانت تَسبح
في البحر
تلميذةٌ قالتْ: ربّما أكلتْها الأسماك
فقلنا جميعا: ربّما، رُبّما
بِمُشْطٍ طويلٍ حَمَلتْهُ إليها الرِّيح
تَفْرُقُ المعلّمة شَعْرَها من الوسط
لكنَّ من يصفّق منّا أكثر ممَّا يَجب
سيُحْكَمُ عليه بالطّواف سبعَ مرَّات
حول المجنون النَّائم
قُرْبَ محطَّة البنزين

غريبٌ أَمرُ هذا الحقل...

غريبٌ أمر هذا الحقل
إنّه متجهّمٌ على الدّوام
وهذا النّاي
الذي ليسَ سوى بلعوم مديد
وهذي البئر التي حفرناها
أيامَ المُراهقة
وها قد وَلَدتْ قُمصانا ووزّعتْها
على حاملي الدّلاء الهائمين
غريبٌ أمر هذي المداخن
المهجورة على السّطوح
حين ننظر إليها بعيوننا التي طالما
سافرتْ
رفقة لقالق
الطّفولة

قَدَمٌ مَنْسِيَّة

كان عندي كتابٌ نادر: "كيف تُصبح بَرمائيـاً في خمسـة أيـام". أبي أحرقـه لأنّـه، حسبما قال، لم يكن يحبّ السّلاحف وأشباهها.

إثْرَها، غادرت البيت مُغْضباً، وتخفّيت شهوراً في تنهيدة امرأة.

ثمّ نفختُ في صَبيحة فصيّرتُها بالوناً لعبتُ بـه زمنـاً وعـثرتُ على أقـدم طُحلب في التّاريخ تحت قدمٍ قديمة جدّا ومنسيّةٍ في حقل، فتركتُها تَركل ذلك البـالون وتُنجِـز المراوغات.

قلتُ في نفسي لعلّها قدمُ أبينا آدم التي كان ركل بها تفّاحةَ الجنة ليُصَـيّرها بالونـاً وهي حقّاً تستحقّ أن تكون قدم لاعب كرة قدم مُحترف يُهاجم ويُسَجّل الإصابات في الجنّة.

ثمّ عُدت إلى البيت. وفي اليوم نفسه أصـلحتُ ذاتَ الـبين مـع العائلـة. أَدْهَشَـنِي، فَحَسْب، أنّ القِطّ لم يَبْقَ منه غيرُ شبحه. وفي الفجر المُوالي، كنتُ في وسط المدينـة مع الذين يقذفون أحجاراً صوبَ حارس السّاحة التي خصّصَتْها الحكومـة لانتحـارِ المجانين.

هذه المغامرات، لِعِلْمكم، حُفِظتْ في أرشيف الرّيح، هنالك خلف جبال الهملايا.

حانةٌ

حانةٌ تُطِلّ على بركة صغيرة، قُرْبَهَا
شجرةٌ تُحسن حمايةَ الطِّفل
الذي يصِلُ راكضاً من جهة البحر
يُطارده خُفَّا أبيه الغاضب
حانةٌ، يحدثُ أن أُطِلّ من نافذتها على الليل
وهو يَمضي نحو الشّاطئ
مُرَدّداً أغنية بحّار
حانةٌ، يحدثُ أن أُطِلّ من نافذتها والظّلام يهبط
فأرى العصفور الذي كان يلعب
الذي كان يَجذبُ تلّةً من ذيلها
يُسْدِلُ ستائرَ الحقل
ويأمر الأعشاب بالنّوم
إنّها حانة القرصان، البعيدة
عن صخب المدينة
حيث، هانِئاً
يشيخُ النّبيذ
في مسامّي!

خِرفان الليل

جوّ سبتمبر الجميل يتشرّبُ الضوضاء القادمة من وسط المدينــة. من نافــذة بيــتي، تبدو لي سفينةٌ تُبْحِر. إنّ لها شَكْلَ قوقعةٍ كبيرة. والهضــبة القريبــة، كَأَنّهــا أضــحتْ شفّافة، فهي لا تحجبُ عنّي البحر. لقد اقتعدَ سطحَها العَالي الشّخصُ طويــلُ الشَّــعر نفسُه، وهاهو يقوم، كالمعتاد، بحركات توحي بأنّه يَقطف غيماتٍ ثمّ يعصُرها وبعدها يُطلقُها لتعود إلى الفضاء مثلما حمائم. حين التقيتُه ذاتَ ليلة، قبل سنة، فوق صخرة تشرف على البحر، قال لي إنّه يُسمّي نفسه سيزيف الجديد. كانت الأمــواج لحظتَهــا خرفاناً مُلْتهبة المزاج، ما تنفكّ تهرب، ثمّ تعود، ثمّ تهرب من جديد. وكان كلٌّ منّــا قد جاء إلى ذلك المكان، بقنّينة نبيذه وكأسِه، ليَشْرَبَ ويُشْهِدَ البحْـرَ على انْتِشــائه... وتحادثْنَا، فاكتشفْنا أنّنا، في بدايات الشّباب، درسْنا في نفسِ الثّانويّــة، خلال نفْسِ السّنواتِ، وفي وقت ما، أحببنا نفس الفتاة.

كُلُّ تلك المُصادفات، والخِرفان المائيّة لا تَني تركُض وتركُض... ثُغاؤها يتشرَّبُه جوُّ سبتمبر الجميل.

غرفة ضيّقة

وَقْعُ حذائي على الرّصيف

ينفذ إلى أذنَيَّ، عبرَ نافذةِ غرفتي

إنّهُ الحذاء الهارب من الخدمة

يُتابع سيرَه في الخارج

وقدماي تستغربان

هذا العقوق

وثمّة أغنيةٌ تصعد نحوي الأدراج

قادمةً من الشّارع نفسه، ذي البرد

الجريح

إنّها للمغني الأعمى، الذي

يبيتُ في العراء، وعيناه

هما صَنْجاه

أما أنا فراضٍ بالبقاء في هذه الغرفة الضَّيِّقة

لكن، متى ضجرتُ حقّاً

أركضُ فيها

فتتحوّل إلى بلد كبير

فيه قتلى يصنعون البارود

وكتبٌ كثيرة، وكنوزٌ مخفيّة

في رئات العصافير

بلدٌ كبير ودائري، حيث الحُزْن

يُزال بالمماحي

وحيث، كثيرا ما يكون الله

هو النّسيم

بِذِرَاعَيَّ اللتَيْنِ طَالَمَا...

بِذِراعيّ - اللتيْنِ طالَما حَمَلَتَانِي

حتّى بابِ بيتِنا

حين كنتُ أتْعَبُ من إحصاء الكهوف

إذ إنّ هذِهِ من هِوَايات شبابي –

أسدّ الطّريقَ في وجْهِ فتىً شِرِّير

كانَ يُقْبِلُ راكضاً ويَنْوِي

أن يَكْسِرَ أغصانَ شُجَيْرة خُزامَى

تشتركُ في مِلْكِيَّتِها

سَبْعُ جرادات

أُفْلِحُ في صَدِّهِ فينكصُ على عقبَيْه ويَختفي

وأسمعُ هَمْهَمَاتٍ تتنامَى إلى أُذُنَيّ

متسارعةً

وتنِمّ عن قلق أكيد:

إنَّهُنَّ الجرادات السبع، عابساتٍ

بالتّأكيد، يُحَلِّلْنَ واقعة الهجوم تلك

من كافّةِ

أَوْجُهِهَا

كنتُ لِلتَّوِّ قدْ وَصَلْت

كُنْتُ للتّوّ قَدْ وَصَلْتُ إلى تلك المدينة

التي لم أَزُرْها منذ صيف قديم

وكان جرَّاحونَ على شاطِئِها

يُخْرِجون من جُمْجمةِ غريقٍ جِيءَ بِه من عُمْق اليَمّ

طحالبَ وقواقع

وبِمُجرَّد ما يُعيدونَها إلى البحر

يَقِفُ ذلك الغريق ويُكْمل إغلاقَ جُمجمته

بيديه

ويُحَيِّي الحُضُورَ بإشارة

بَعْدَها يأتي مُمرّضونَ بغريق جديد ويُمَدّدونه

على سرير الجراحة

فيما يكونُ سابقُهُ قد رَكِبَ

درَّاجته النَّاريَّة ومَضَى نحو بيته

حَيّاً ولكنْ بِلا لَحْمٍ يَكْسُو عِظامَه،

بلا لحْمٍ ولكنْ بِرُوح مَرِحة...

أصدقاؤه سيحتفلونَ بعودته هذا المساء

وسيلاحظون أنّ لَهُ في الرّقصِ

هَزّةَ كتفٍ

لا تُضَاهَى

وأنتِ بِلباس البحر

ذات صباحٍ، وأنا بعدُ طالبٌ وفي الثّامنة عشرة
كنتُ في مقهى على الشاطئ
وكان ثمّة سبّاحون يدخلون إلى المياه متقافزين
شاعِرِينَ، ولا شكّ، بالرّعشة
وكنتُ أقرأ أخباراً في صحيفة
لكنْ سرعانَ ما استأثَرَتْ بانتباهي تَنُّورةٌ قادمة
فارغةً من صاحبتها
مُرْتَفِعةً عن الأرض وأطرافُها تهتزّ إذْ
يعبثُ بها النّسيم
كانت حركات التّنورة أثناءَ قُدُومِها متهاديّةً
مِن خلف تلّةٍ صغيرة على الشّاطئ
أليفةً لعينيّ
مشدوهاً نهضتُ

ومضيتُ باتّجاه التّلة:

خلفَها، كانتِ الابتسامةُ العريضة

على وجهكِ وأنت بلباسِ

البحرِ، سَلْوى

لَم نكن، قبل تلك اللحظة، قد تبادلْنا سوى نظراتٍ

في ردهة الكلّية

وأخرياتٍ بباب صيدليّة

وقلتِ: تنّورتي

أرسلتُها لتأتي بك أيُّها الخجول

وها هي الآن عائدةٌ

نحوي!

بسبب أوراق ميّتة

كان ثمّة خفْقُ أَجنحة

يتناهى إليّ من حديقة تتمدّد فيها فتاة

على مصطبة

الفتاة كانت رفيقةً لي في قسم ما

بالابتدائيّ

وفي تلك الأيّام البعيدة، كانت قد أُصِيبت

بالنّحول بسبب أوراق ميّتة

سقطت من شجرة

على ركبتيها

ثُمّ التقيتُها بعد ذلك بزمن

في محطّة قِطار

وكانتْ تدخّن كثيرا

قالت يومَها إنّها في طور التّحوّل

إلى سيجارة ضخمة

سيجارة ذات فم وعينين

ذات أذنين ونهدين

وهي الآن على المصطبة

تبدو مديدةً وملفوفةً بالبياض كأنّها فعلاً

سيجارة ضخمة

فيما يتصاعد من ذاكرتها

دخان أبيض ورماديّ

ومع هذا، فلا داعي لأن نقلق

إنّها لا تزال من لحم ودم

على شفتيها ابتسامة

وتنظر إلى عصفور فوق سلك كهربائيّ

بَعيد

حُلَفاء

لقدْ أُعلِنتْ علينا حربٌ شعواء
ولسنا الطّرف القويّ فيها!
وفي شوارع مدينتنا رُئِيَتْ تلميذات صغيرات
يتظاهرن بالمرح وصرخاتُهنّ
تحت رموشهنّ
والمغنّي الذي كان قد عوَّدَنا
على مَرَحه ودَنْدناته
انكمش في زاوية بزقاق مهجور
حيثُ بدأ يتتبّع هَلْوساتِ عِظامِه
كما لو كانت مشاهد
في شريط سينمائيّ!..
لكنْ جميلٌ أنْ يكونَ قد جاء لنجدتنا
هذا الفيلق من العميان
الذين يدخّنون وينفثون الدّخان
من عيونهم
وهذه البِركة التي يُقال إنّها
سليلةُ جبلِ جليدٍ مَهيب
جميل أن تكون قد وصلتْ كلُّ هذي الأجراس

وهذي السّمكة التي هي كُبرى

وزيرات البحر

هذه العجوز التي تظهر عادةً في نهاية كلّ خريف

لتكنسَ

الغابات

وهؤلاء الأطفال الشّجعان

الذين أنقذوا عصافير في بِيد

فلكم نحن محظوظون

بحلفاء

من هذا القبيل!

أسلاف

في هذا البيت، في زمن قديم، تطايَرَ شَرَارٌ كثير
من جَسَد جدّ، بعد أن رَطمَ رأسُه
بسقف قُبّعته
سكّانُ هذا البيت، من أجدادٍ أكثر قِدَماً
كانُوا شديدِي التّديّن
واتّخذوا إِلَهاً البُركانَ المقدَّسَ الذي
أصبح في مكانه الآن
فُرْنٌ كبير
أنا، خلال هذه الليلة، في هَذا البيْتِ نفسِه
أستمرُّ في كتابةِ تاريخ السُّلالة
فَيَدْلِفُ إلى غرفتي ناطقونَ باسْمِها من كلّ
العُصور
يتجمّعون في جانب من الغرفة، فتميلُ تحت ثِقَلهمْ
يركضون إلى الجانب الآخر، فيشعرون
أنّه يَمِيدُ بهم
وهكذا، أنا أُؤَرِّخ لهمْ
وَهُمْ يُمرجِحونني!

عَين

قَرْيةُ جدّتي: بُيُوتُها تدور حول
صرخة، تَصَّاعَدُ على الدَّوَام من البئر
الَّتي في وَسَطِها. لم يحدثْ
أن رأيْتُ تلك القرية، لكنّي
كنتُ متشوّقاً لزيارتها، بعد أن حَكَتْ لي الجدّة
عن طفولتها في أرجائها، وكيف أنّ
دوران بيوتها كان يجعلُ الطّواقي التي
يعتمرها أهلها
تضيء لهم سُبلَهم في الليالي الحالكة، ويُمكِّنُ
دجاجاتِها
من أن تُقوقئ بالعديد
من اللغات الأجنبيّة.
وفي ليلة بعيدة، كنتُ قد فكّرْتُ طويلاً
في تلك العجائب، ثُمّ أَطللْتُ من نافذة، فرأيتُ
دمعة جميلة
في عين أليفة.
تلك كانتْ عينُ الجدّة. لقد أُغْمِضَت
منذ سنوات. لكنْ، أكيدٌ أنها الآن
تَجُوسُ في غابات

وفي قُرىً عجيبات

وتتتبَّع مُغامرات

تقوم بها جِنّياتٌ في حكايات

لا يُخِيفُنِي إِلَّا شيْءٌ واحِد

زُرْقَةُ هذا النَّجْم - وقد كان
صديقَ طفولتي
ولطالَما حرص على إضاءَة طريقي
أثْناءَ عودتي ليلاً من السّينما -
هِيَ بالتّأكيدِ مَرَضِيَّة
لقد سَاءَتْ حالتُه كثيراً
هذا ما أكَّده لي
طبيبٌ مُخْتَصّ في الجهاز التنفُّسِيّ
وعالِمُ فَلَك
وما هَمَسَتْ لي بِه امرأةٌ في بُسْتان
تبيّنَ لاحقا للشُّرطة السّرّية أنَّها
إمّا زرقاءُ اليمَامَة شخصيّاً
أو من سُلالتِها...
الشُّرْطة السِّرِّية!
يحدثُ أن يَحْدِجَنِي أفرادٌ منها

فَأَحْدِجُهُمْ

أنا لا آبه بهمْ

وفي هذه اللحْظَةِ، لا يُخِيفُنِي إِلَّا شيْءٌ واحِد:

أنْ يَهْوِيَ النَّجْم صديقي منذ الطُّفُولة

واهنَ القوَى على هذه الأرضِ الحزينة

فيما أبقى أنا واقفاً هنا

غَيْر قادرٍ على أنْ أفْعَلَ مِنْ أجله

شيئاً

حميمّية

عن خَدّ شَجَرَتِي اليافِعة
التي تحرس باب حديقتي
أَنْفُضُ غبارَ النّجوم
فيما أزهارٌ تَتَسَلّى بعزفٍ خفيف
على آلةٍ ما، أَحْدُس وُجُودَهَا
ولا أراها
وأنتِ تستحسنين عزفها
لقد مرّتْ علينا ساعاتٌ منذ أنْ حلَّ الليل
وفجــأة : هذا الشّفقُ الذي
يَنْداحُ من قنّينتنا الأخيرة الواقفة
على الطّاولةِ، فارغةً منذ ساعات!
شَفَقٌ ينداحُ منها وينتشر
ويلفّ قامةَ السّاهرةِ جَنْبِي
المضمّخة بضحكتها
في هذه الليلة النّاشِفة
إلامن عرقِ
نَحْرها!

يا مُقَشَّرةَ الدِّهان

تُزْعِجُني قَصَّةُ شَعْرك يا نجمة
إنّ لها رائحةَ نعجة مُبلَّلة
لا أحبُّكَ يا قمرَ هذه الليلة
فأنت لا تتفوّه إلا
بكلماتٍ نابية
ومِنْ حُسْنِ الحظّ أن الذين يحشِمُون بِشِدّة
هُمْ إِمّا صُمّ
أو يَغُطّون في نَوْمِهِمْ
أمّا أنتِ يا مُقَشَّرةَ الدِّهان
يا ذاتَ الجدرانِ المُصابة بِالهذيان الرُّعاشيّ
يا عجوزاً مُعَلّقة
تُثْلِجُ مِن أَخْمَصِ قَدَمَيْهَا
يا غُرْفَتِي
فَجَوْفُك بَحْرٌ بَارِد
ماؤه من دُخان سجائري ونظراتِ
تعجُّبي
وأنا، متى استطعتُ أن أُغَافل
بَرْدَك، سأهجُرُك وأمضي
منزلقاً على ابتساماتِ حمائمَ صديقَة
حتّى هونولولو

ففي هونولوووولو

القدّاحاتُ الجَميلات

تُبَادِر للرّقص للوافد الجديد

والمدافئ الكهربائيّة تعيش صامِدةً

وتموت واقفةً

وإذا شعرتَ بالغربة في هونولوووولو

يمكنُك، بحركةٍ من رأسك

أنْ تُحيِّي نفسك، فتشعرَ بدفءٍ

إنسانيٍّ عظيم!

حقّاً، قد يحدثُ في هونولوووولو

أَنْ أبِيتَ ليلةً ما في فندق ناقصِ

التّدفئة

فتُطِلَّ عليّ القُشَعْريرَة بعينيها اللمَّاعَتَيْن

من النّافذة التي أَكُون قدْ نسيتُ

إغلاقها جيِّداً

لكنْ سَرْعانَ ما ستلْحَقْنَ بي

يا حليفاتي الحمائم

وبضرباتٍ من مناقيركنَّ ذواتِ

البأس والبسمات

تُكَبّدن عصابات البرد اللعين

أفدحَ الخَسائر!

يَغمسون رأس المهرّج

نعم، تمّ الأمر كما فكَّرْتِ فيه
فقد ذهبتُ إلى المصبنة
وجلبتُ ثيابنا
وفي طريق العودة، رأيتهم يغمِسون رأس المهرّج
في رغوة الضّحك التي كانوا
قد ملؤوا منها جردلاً كبيراً
وها أنا هنا، أُهْدِيكِ - فيما أنتِ تهيّئين
الغداء-
البَارثينون وقوسَ آخيل ومُبرهَنةَ أقليدس
وجبلَ البارناس ومخطوطةً لإسخيلوس
حتّى تكونَ لكِ آثارُ خُطى
على ترابِ حدائقِ
اليونان القديمة
- أنا، حديقتي قَدَمِي وأظفارُها
أزهارُها-
وبعد هذا سأُردفُكِ خَلْفي على
درّاجتنا المُطهَّمة
ونمضي نحو بيتنا القديم الذي كنّا
قد سكنّاهُ زمناً ثمّ تركناه

وكنتُ، كلّما سكِرْتُ تحت سقفه،

تُشعشع عظامي من تحت الجلد واللحم، بوميضٍ

منتظم أصفر وأخضر وأحمر

وذاك كان يُضْحِكُنا كثيراً إذْ يُذَكِّرُنا

بلعبة البليياردو الكهربائيّ!

الآن، بعد أن ندخلَ مُجدّداً إلى ذلك البيت

فهو قدْ يُباغَتُ كما

تقولين، لكنْ كُونِي

متيقّنةً مِنْ أنّنا سنشعر في غُرفه بنفس

الإعجاب بِـهَـيْـنَـمَـة النّمال التي

خَلْف أحد جدرانه

كانتْ دائماً تتشكّى من الأرق!

بل إنّه سيحتضن بحنوّ حتّى درّاجَتَنَا

ويُعامِلُها ككائنةٍ حلَّتْ فيها رُوحُ

إلهةٍ قديمة

كائنةٍ جِسْمُها من معدن

ولِمِقْوَدِهَا

بَرِيقٌ!

شمسٌ صغيرة

يَتَطَلَّعُ إلى شَمْسِ هذا الصَّبَاح
إنَّها صغيرةٌ ما تزال، يقول في نفسه
من الخطأ، ولا شكّ، أن تكونَ قد اعتُمِدَتْ
في هذه السِّن المبكِّرة
شمساً فِعْلِيّة.
إنَّه يراها الآن مُجرَّحة الخَدَّيْن
مُعَفَّرة الجبِين
يَسْألُ: هل عُدْتِ مُجدّداً إلى شَقَاوَتِك
وتَجَرَّحَ خدّاكِ في مُشَاحَنَات
وتَدَحْرَجْتِ على أتْرِبَة؟
ويسمعُهَا تقول:
لا، بلْ طاردَتْنِي غربانٌ معدنيّة
وحاولَ أسْرِي ماسُونِيّون لهمْ وجوهٌ
مِنْ حَجر
ولجأتُ إلى هنودٍ حُمْر
يَصْخَبُون في حَانَات...
يتابع طريقَه إلى المَقْهَى
الَّذِي يشربُ فيه، في العادة،
قَهْوتَه الصّباحيّة

هو فرح، فقد سمعَ كلامَ

الشَّمْسِ-الطِّفْلة،

وبعد لحظات، ومن ألقِ عينيه

سيرسم لها صوَر أطفال من سنّها

لتلاعبهم

حتّى يحينَ أوانُ

غروبها!

أتهيّأ للإبحار

مشيتُ تحتَ صفير غيمة
كانتْ تتلهّى
بتتبّع شريط ذكرياتي
والقرويّة التي كانتْ عشيقتي
ذاتَ يوم في بيدرٍ ما
ظهرتْ بدورها خلف نافذة بعيدة
باسِمةً ومحاطةً بالعصافير
باسِمةً وتنقُر
على طبلة أذن الريح الرّصينة
يا عشيقتي يا عشيقتي
كوني لي خيمةً
على جبل الكهرباء
بهذا رفعتُ عقيرتي وأنا، في غُرفةِ
نَومي، أتهيّأ للإبحار
في كأسٍ غريبة

كوميديا سوداء

هل تعتقدُ حَقّاً يا صديقي مِيرُو
أنّكَ سبقَ أن كُنتَ
بطَّةً بَرِّية في حيَاةٍ سَابِقَة؟
هل فِعْلا تُنَقِّبُ في ذاكرتكَ بَلْ حتّى
في مسامِّك لِتَجِدَ جواباً
عنْ تساؤُلك هذا؟
ثُمَّ بالله عَليك
مِنْ أين جاءتْك هذه الفكرةُ أَصْلاً؟
مِنْ كونكَ، حسبَما تقول، أصبحتَ تَرى
بِرَكاً كثيرة في أحلامك
وتسمعُ صوتَ البطّ فينتابُك حنِينٌ غريب
وتُثيرُ انتباهَكَ أيُّ ريشةٍ طائرة
مهما كانتْ واهية؟
لكنّك، بهذه الطّريقة، تُثيرُ القلق
في نفسي يا صديقي
وتجعلُنِي دائمَ الشُّرود

وتَمْنَعُ النّومَ عن جفوني

لأنِّي أصبحتُ، عند كلِّ غَفْوة،

أرى بنادقَ في الحُلم

ودخَاناً يتصاعدُ أمامي

وكلّما بدا لي موقدٌ

إلّا واستثارَ اهتمامي

وكلّما لمحتُ جَمْرةً

أو كومةَ أخشابٍ تَشْتَعِل

تسمّرتْ عليها عيناي...

فهلْ يا تُرى كنتُ في حياة آنفة

قَنّاصاً

وحدثَ أنْ قنصتُكَ وأنتَ بَطّة

وَحَدَثَ أنْ طَهَوْتُ منك؟..

آه! إنّكَ تَجعلُنِي أتعذّب

آه! إنّي سأَبْكِي...

يَغذُّ السّير في المرآة

يا لَتوتّر حاملِ المظلّة الشّاحبِ القادم بسرعة.

إنّه يحثُّ الخطى في اتِّجاهِ رجلٍ طويلٍ ومُحتقِنِ الوجنتين،

واقفٍ أمام مرآةٍ، شِبه نائم، ويُدخّن.

حاملُ المظلّة يزيدُ من سُرعته ويتذكَّر المرأة

التي كانتْ عشيقةَ محتقِنِ الوجنتين:

إنَّها مَاشَا الجميلة التي غرقت في ذلك البلد البعيد

وهي الآن قابعة ولا شكّ في قعر نهر الفولغا.

ويدندن الرّجل الطّويل المحتقن الوجنتين

بقصيدة كان قد كتبها عن موت عشيقته الرّوسيّة.

إنّه واقف أمام مرآة الحمّام، في بيته بكازبلانكا

يُدخّن ويَحلق ذقنه، ويرنو

إلى حامل المظلَّة الذي يغذُّ السّير نحوه في المرآة

والذي لم يكن إلا هو نفسه، قادماً

نحو نفسِه

من شتاءٍ روسِيٍّ قديم!

في هذه اللحظة بالضّبط

في هذه اللحظة بالضّبط، حسبتُ أنّي متّ

لكنّ روحي، التي، منذ دقائق،

غادرتْ، حقّاً، جسدي

لَمْ تلتحقْ بالسّماء، بل إنّها صعدتْ إلى قِمّة نخلة

أراها من نافذتي!

انْزِلي، أيّتها الرّوح القلقة،

انزِلي فوراً

وَعُودي إلى حيثُ كنتِ

هكذا تحدّثتُ إليها، ثمّ أَضَفْت:

هيّا انْزِلي،

كفاك عبثاً!

أعزفُ على هَرْمونيكا خياليّة

غُيُومٌ داكنة تَسْري في الأعالي مُتَجَهِّمةً
كأنّما هي بِدورها مُتعبةٌ وضَجِرة
هذا ما قلته لنفسي وأنا أسيرُ في هذا الاتّجاه ثمّ
في ذاك
إنّي حائر، وهذا يَجعلني أضحكُ وأعزف على
هَرْمونيكا خياليّة
حقّاً كانتْ هنالك سهرةٌ على شاطئ المدينة الهادئ
لكنَّ ذاكَ كان البارحة
وحقّاً كان هنالك تمثال
يَنْحَتُ فلاَّحين وأبقاراً في قرية
لكنَّها قريةٌ تنأى دائما في الأصباح
عمّن يتّجه صوبها
وكثيرٌ من المدفونين فيها ماتوا
جرّاءَ سقوطهم عن سُطوح
لذا فأنا أُحرّكُ كتفِي السّاخنة
أغذّ السّير صَوْبَ الزّهرة التي اكتسبتْ شُهرةً

لديَّ بعد أن ترافقَ عِطْرُها وَقَلَقي

في طُرُقٍ وفي العديد

من محطَّات القطارات

سأجلس قليلاً قربك أيتها الزّهرة

مثلما يجلس إنسان قربَ قلبه

وأستعيد أصباحاً كنتُ قضيْتُها وأنا طفل

على شاطئ المدينة هذا الذي أرى الآن جانباً منه

هنالك خلف الأشجار

آه! في تلك الأيّام كانت الكلمة العليا

في هذا الشّاطئ

لجرادة

وقد انقلبتْ في السّنة الماضية

حوريّةَ بَحْر!

وفي انتظار الوصول إلى زهرتي، هذه نصيحةٌ منّي

إليكَ أيُّها العابرُ بقربي

إليكِ أيَّتُها العابرةُ جنبي

لا يَدلِفَنْ أَحدٌ منكما إلى هذي الحديقة المتوحّشة

التي هي الآن قُبالتي

إن شاء ألا يُكْسَرَ له ضلع أو يَلتمعَ دَمٌ

على جبينه

ففي جنباتِها عِشْنا زمناً شقاوةَ طفولتنا

نتحارب بسيوف من صُنعنا

وفي فترات الهدنة نَصْفِر مُقَلِّدين موسيقى

بعض أفلام الويسترن ثمّ نبدأ

في تصويب أحجار إلى أيٍّ منّا

كان يقبلُ أن يَعتليَ شجرةً ويتقمَّصَ

شخصيَّةَ غُراب

كبرنا الآن طبعاً لكنّ أحجارَنا ما تزال

على نَزَقها

أما كلّ ذاك الصَّفير المُنغّم الذي كنّا نَصدح به

فلا أعرف في أيٍّ من أصقاع الأرض

تلتقطهُ الآن آذان

ولا في أيّ البلاد يُطفئ شموعاً

أو تحسِبُه كلابٌ سائبة

مُوَجَّهاً إليْها

له ذاكرةٌ حَيّة

كان يَمْضي عبر شارع العظام
تحت مطرٍ من ابْتسامات الأشباح
يُخفي جيّداً صرختَه السّرّية
لا يحبّ الحياة كثيراً
لكنّه لا يكرهها
لقد وُلِد ذات يوم اشتدّ فيه الحرُّ
على المجانين
وهو يعيش الآن قرب بركةٍ
يسمعها، أحياناً، تحكي القصص
لجراداتٍ من حَوْلِها
له ذاكرة حيّة: رأى مرّة سيجارةً في
فم عابر بقربه
فتذكّر أنّها السّيجارة نفسُها التي
سبق أن رآها في حلم
يتذكّر أيضاً أنّ جدّته، قبل وفاتها
أوصتهُ خيراً بعلبة النّشوق

التي تعاني من الخَرف

وبالرّياح الفقيرة

والدّجاجاتِ الثّلاث

النّاسكات

وأصبحتُ سيِّدَ السّاهرين

كنتُ صيّادَ سمك

وكنتُ غنيّاً أو فَلْنَقُلْ

إنّه لم يكنْ ينقصُنِي شَيْء

ثُمَّ ساءتْ أحوالي، بعد أن عشقتُ

حياةَ الليل

بغوانيها بِنبيذِها بِحُرُوبها

وأصبَحْتُ

سيّدَ السّاهرين

وحسِبُوني جُنِنتُ حينَ بدأتُ أرَى في منتصفاتِ

الليالي

ومعي شِبَاكي التي صِرْتُ أُلْقيها

إلى أعلى، لَعَلّي أصطادُ

ابتساماتِ نُجومٍ

أوْ همهماتِ غيومِ الليل

أوْ حتّى حصاناً مُجَنّحاً لطيفاً

يَحْملني على ظهره

ويَمْضي بي في رحلاتٍ عجيبة

أَقصّ وقائعها، في يوم ما، على أحفادي

القادمين!

- 7 -

قصائد مختارة

ممّا لمْ يُنْشَر بعدُ في مجموعة

على قِمّة جبل

صعدتُ إلى قمّة جبل

ووجدتُني أمام كوخ صغير مُتداع

ذاك كان مسكنَ البرد

وهو يأوي إليه متى يشاء

منذ ما لا عدّ له من القرون

في مرّة قادمة

سأرسمُ لوحة وأعلّقها على بابه

البردُ على عِلّاته يستحقّ منّي

هديّة صغيرة

وها أنا الآن في هذا العلوّ

غير متوجّس من شيء

رغم أنّ أسرابَ عصافير

بدأتْ تُبرق

وجِلدَ هذه الساعة

دبّ فيه التّنمل

رغم أنّ الشّحوب طوّق الأشجار

ونمالاً حمراء كثيرة

امتقع لونُها

وحين شعرتُ بوحشة حقيقيّة

مرّ هيكل عظميّ وحيّاني

أتذكّر صورَته جيداً

أيّامَ كان مكسوّاً باللحم

فقد لعبنا معاً في نفس فريق

كُرة القدم

قال لي لا تُضعْ وقتَك هنا

ليس هنالك فُرجة من أيّ نوع

قالها ورَكل الفراغ بقوّة

وبالفعل فقد كان في الأيّام الخوالي

هدّافاً شهيراً

يركل بقوّة بالقدمين

كما يُحسن ضرب الكرة برأسه الذي

كان يختزن أيضاً عدداً

من أغاني بوب مارلي

قَبْل الإفطار

شفرةُ الحلاقة تحلم قرب لحيتي

بقطراتٍ من دمي

نملةٌ تسقط من مكان مجهول

على سطح رغوة معجون الحلاقة

هي في ورطة عظيمة لكنّها تحلم

أنّ لها ساعدين قويّين وأنّها

تجذّف وهي على متن قارب

وإذ أشعر أنّها تودّ لو تَنوح

أُسارع إلى إنقاذها

لكنّي حين أزمع البدء في الحلاقة

أسمع زمجرات غضب:

إنّهن البيضات الثّلاث، منفعلات،

فقد تركتهنّ، دون أن أنتبه

في زاوية معرّضة

لتيار الهواء.

يُسَمّد الحقل...

آثرَ في هذه السّنة أن

يُسَمّد حقلَه بالكلام

ولأنّ له لساناً أصبح لا يكفّ عن الثّرثرة

- منذ أن فتنتْه امرأة في السوق الأسبوعيّ -

فالحقل سيُخصِب ولا شكّ

والغلّة ستكون عظيمة

حقّاً، هو لم يكن قد رأى

من تلك المرأة سوى صفّي أسنانها

وبينهما

قطعة بطيخ مديدة

لكنْ سوف يُفعِم الفرح قلبَه بعد الحصاد

وسيكون هنالك عتّالون كُثر

وصَفْقُ أبواب

وسوف ترتفع عقائر بالغناء

وتتنحنح قناديل

وتتساقط ثلوج

على رؤوس نسوة حزينات

كنّ قد أغدقن حبّهن الأموميّ

على قطع سكّر

كانتْ لها حياة

لكنّها لمْ تحترسْ

وذابتْ في كؤوس

كيف لي...

كيف لي أن أنهي قصّة الأميرة ذات الهمّة وولدها عبد الوهاب في ليلتي هاتــه الــتي يُضيئها فحسب بُؤبؤا عصفور؟

لن أبحث عن جواب ما دامت هذه الــرّيح البطيئــة لم تنتــه من مســح العــرق عن حصاني المطاطي المركون قرب النّافذة. حقّاً، كانت لي ريشات هنديٍّ أحمر حــول رأسي، لكنّها سقطتْ منّي ذاتَ صباحٍ في حقل جدّي. حــدث هــذا منــذ وقت. وكلّمــا فكّرتُ في العودة إلى ذلك الحقل لأجلب منه ريشاتي، يتعالى الصّفير في أذنيّ. جدّي كان معروفاً بشدّة صفيره. بطلاً في ذلك الميدان كان. تسمع ناقتُه صفيرَه من بعيــد فتُقْبِلُ نحوه مسرعة راضية.

والعجيب أنّي، في العديد من المرّات، ما إن كنتُ أغذّ السّير في اتّجاه ذلك الحقــل حتّى أعرّج على أشجار أحسبها حزينةً فأودّ لو أواسيها ثمّ أمرّ بجنبِ كهف فيبدو لي متحفاً للصّافرات، وكنتُ بالفعل أرى فيه صافرات من أقــدم العصــور وأخــرى من أزمنة قريبة أو حتى من عصرنا!

ومرّة، كنت أمضي في اتّجاهِ الحقل الذي سقطتْ فيه ريشاتي فرأيتُ ما حســبته قبّــةً من حرير نازلةً أطرافُها المُلوّنة إلى مستوى أدنى من مستوى رأسي، فدلفتُ تَحــت

تلك القبة لكنّي بعد لحظات اكتشفت أنّها في الحقيقة تنّورة أسطوانية يتبدّى بداخلها ردفان مكوّران جميلان وفخذان صقيلتان تسرّان ناظريّ.. أتلبث قليلاً لأستريح بين تينك السّاقين. (يجب الإقرار بأنّي كنت طفلا صغير حجم الجسد وقتها). وإذ تـدفّئني سخونة المكان بما يكفي، أخرج من تحت التنورة وأتطلّـع إلى فـوق، فـأرى وجهـاً أنثويّاً جميلاً يبتسم لي.

ومرّة كنتُ سائراً صوب حقل جدّي لأستعيد ريشاتي لكنْ جاءتني أحلامٌ من أعشاش وشرعتْ في الطّبطبة على كتفيّ. ومرّة التقيتُ أبي وأنا في طريقي إلى ذلـك الحقـل فقال لي: تُضيع وقتك في البحث عن ريشات. لو أنّك في غرفتك تُراجع دروسك، أو على الأقل تلعب مع أقرانك تحت الأشجار. هكـذا عـدت إلى الـبيت وفتحت قصـة الأميرة ذات الهمّة وولدها عبد الوهاب على الصـفحة الـتي كنتُ متوقّفـاً عنـدها!

في عربة

أُسافر في عربةٍ عجلاتُها بيضاء
تسلك بنا طريقَ الشّاطئ، وجارتي إذ تغفو
تبدأ التّجاعيد في التّكاثر على وجهها.
حجمُها في تناقص.
أهي حالة شيخوخة مباغتة؟
تتصاعد موسيقى قرب النّافذة التي
أطِلّ منها على البحر.
تْرلَلّا تْرلَلّا تْرلَلّا تْرلَلّا تْرلَلّا تْرلَلّا
موسيقى فلامنكو: آه! كمْ كنتُ معجباً بِلَالُو تيخادا
لكنّي نسيتُها زمناً ولم أتذكّرْها
إلّا في هذه اللحظة.
جارتي اسمُها علياء وهي طبيبة أطفال.
ذلك أنّنا تعارفنا قليلاً
قبل أن تنام.
قالتْ إنها تحبّ الأغاني الخفيفة
وأن ترشَّ ظلّها في الصّيف

بماء بارد

وأن تُطلّ على المطر

من نافذة في قطار.

فـهــرس

- هذا الكتاب -- 3

- قصائد مختارة من "على دَرج المياه العميقة" ---------------------------------- 6

- قصائد مختارة من "محفوفاً بأرخبيلات..." ------------------------------------ 28

- قصائد مختارة من "راية الهواء" -- 56

- قصائد مختارة من "فراشة من هيدروجين" ---------------------------------- 74

- قصائد مختارة من "رجل يبتسم للعصافير" ---------------------------------- 107

- قصائد مختارة من "عيون طالما سافرتْ" ----------------------------------- 141

- قصائد مِمّا لم يُنشَر بعد في مجموعة -- 190

أَخْفِ الأجراس في الأعشاش

أنطولوجيا

مِئة قصيدة مختارة

لِمبارك وساط

2021

منشورات حِبر

من لوحة لِ: أولغا روزانوفا